شمس المغرب

سيرة الشيخ الأكبر

محيي الدين ابن العربي

ومذهبه

تأليف

د. محمد علي حاج يوسف

تقديم

فضيلة الشيخ رمضان صبحي ديب

كل الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو أي جزء منه بأيّ طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من المؤلف (mhajyousef@hotmail.com)

الطبعة الأولى

٢٠٠٦

شمس المغرب

سيرة الشيخ الأكبر

محيي الدين ابن العربي

ومذهبه

تقديم من فضيلة الشيخ رمضان صبحي حديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المتفضّل على عباده بجزيل عطائه، غامر القلوب بمنّته وإحسانه، لا يحدّه حدٌّ، ولا يصل إلى كُنه صفاته عدٌّ؛ إله الله الواحد الأحد، المتفرّد بملكوته، تتسامى القلوب في مراقي محبّته، وتتنافس العقول في مراتب معرفته، وتفنى الأجساد في ظلّ طاعته وعبادته...

والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد النبيّ الأميّ الذي اصطفاه الله سبحانه وتعالى إماماً للمتقين ورحمة للعالمين، وقائداً للغرّ المحجّلين.

أمّا بعد:

فقد طلب مني الأخ الفاضل الدكتور محمّد علي حاج يوسف أن أقدّم لكتابه (شمس المغرب) المتعلّق بسيرة الشيخ محيي الدين ابن العربي ومذهبه، فوجدته قد بذل جهداً كبيراً في جمع المعلومات الهامة عن حياة ومذهب هذا الشيخ، ووضعها بين يدي القارئ سهلة المنال أمام من يحتاج إليها ويستفيد منها، خصوصاً وأنّ الخوض في مثل هذا الموضوع شائقٌ وشائكٌ بنفس الوقت، وفيه خلاف بين ذوي الآراء: فمن مؤيّدٍ، ومن معارضٍ، ومن مصدّقٍ، ومن منكرٍ بل بين معدّلٍ ومكفّرٍ، استطاع المؤلّف وفّقه الله أن يتخلّص من هذه المعضلة بأسلوبه الموضوعي العلمي، البعيد عن التطرّف أو التعصّب: فقد راح يسرد حياة الشيخ ومذهبه دون أيّ تعليق شخصي ينمّ عن رأيٍ خاص، بل غالباً ما يترك التدخّل والتعليق على ما يذكر من الروايات التي هي غالباً واضحة السند، أو على الأقل واضحة المصدر الذي أخذ منه الرواية.

إن معرفة شخصية كشخصية الشيخ محيي الدين ابن العربي فيها خدمة جليلة للمسلمين بما فيهم مؤيّدهم ومعارضهم. فالمسلم جدير أن يتعرّف على الشيء قبل أن يحكم عليه أو قبل أن يسمع حكم الآخرين، فيصفّق لما يقولون دون أن يعرف كُنه الحقيقة، ودون أن يبحث ويتمحّص ويكون له رأي مبنيّ على محاكمة سليمة للأمور... يأخذ المفيد فينتفع به ويدع الغثّ جانباً.

إننا اليوم بحاجة للنظر إلى الأشياء بعين الجدّيّة، ومحاكمة الأمور بعين الموضوعية، بعيداً عن التعصّب والتطرّف، فما وجدناه يوافق القرآن والحديث اتّبعناه، وما وجدناه يعارضهما أبعدناه، ولنعد إلى الحديث القائل: [إنّ هذا العِلمَ دِينٌ. فانظُرُوا عَمّنْ تأخُذُونَ دِينَكُمْ.] (أخرجه مسلم).

رحم الله مشايخنا، وجزى الله الأخ المؤلف خير الجزاء عنّا وعن المسلمين، ووفقه الله لمزيد العمل والعطاء، إنه سميع مجيب.

الشيخ رمضان صبحي حديم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال الله تعالى في سورة فاطر: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ...﴿٢٨﴾)، وقال أيضاً في سورة الزمر: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴿٩﴾). وذكر ابن القيم في كتاب العلم أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: "مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَطْلُبُ فِيهِ عِلْماً سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقاً مِنْ طُرُقِ الجَنَّةِ، وَإِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضاً لِطَالِبِ العِلْمِ، وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالحِيتَانُ فِي جَوفِ المَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ، وَإِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلا دِرْهَماً، وَرَّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ".[1] وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أيضاً في الحديث الذي صححه السيوطي: "خمسٌ من العبادة: قلّةُ الطعمِ، والقعودُ في المساجدِ، والنظرُ إلى الكعبةِ، والنظرُ إلى المُصحفِ، والنظرُ إلى وجه العالِمِ".[2]

فهذه محاولة متواضعة لرشّ بعض النور على جوانب حياة رجلٍ جليلٍ من علماء المسلمين كرّس حياته للعلم والمعرفة فوهبه الله منها الحظّ الوافر والقدْرَ العظيم، وقام هو بدوره ببثّ هذا العلم في كتبه العظيمة قالباً وقلباً، فأنار بها العالم كلّه شرقاً وغرباً.

---

[1] سنن أبي داود، الإمام الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية-بيروت، ١٩٧٠، كتاب العلم، ص٣١٧، حديث رقم: ٣٦٤١.

[2] الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، الإمام جلال الدين بن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية-بيروت، ١٩٩٠، المجلد الثاني، باب حرف الخاء، ص٧.

ونريد من خلال دراسة سيرة هذا العارف الجليل أن نستكشف بعض هذه العلوم والمعارف التي أهداها لنا الله على يديه والتي وقف عندها العلماء والفلاسفة حائرين حيناً ومعجَبين حيناً وعاجزين في أغلب الأحيان عن الخوض في بحارها واستخراج جواهرها ومكنوناتها.

لقد وَهب محمّدٌ ابن العربي حياته كلّها لتحصيل العلم والمعرفة، ولكنه لم يسلك في ذلك طريق الفكر والنظر مثل عامة العلماء على جلال قدرهم، وإنما سلك طريق التقوى التي هي الشرط الوحيد حتى يتولى اللهُ سبحانه وتعالى عباده بالتعليم، كما قال عزّ وجلّ في سورة البقرة: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢﴾، وقال أيضاً في سورة الأنفال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ...٢٩﴾، أي ما تفرّقون به بين الحقّ والباطل. فمَن حقّق شرط التقوى حصّل الغاية العظمى من المعرفة الإلهية التي هي النور الحق المبين.

وهذه المعرفة التي تحصل بالتقوى هي المعرفة الكشفية الذوقية الوهبية عن طريق أرواح الأنبياء والملائكة الكرام الذين ينهلون من بحر المعرفة الأبدية محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وهي معرفة يقينيّة تُدرَك بالبصيرة ولا يُداخلها الشكّ، بخلاف بقية العلوم النظرية المبنيّة على الفكر الذي يصيب حيناً ويخطئ في أغلب الأحيان، والفرق بينهما كالفرق بين من يذوق العسل ومن يقرأ عنه في الكتب أو يسمع عن وصفه ممّن ذاقه، فالأخير ربما يقارب الحقيقة بعد جهد وعناء وهو ليس فيها على يقين، وأما من ذاق فتحصل له المعرفة الضروريّة اليقينيّة بمجرّد الذوق وبلا جهد ولا تعب بل مع لذّة وهناء، ولكن بشرط سلامة المحل؛ فربما يذوق العسل من في فمه مرضٌ فيمجُّه ولا يستسيغ طعمه.

وبما أنّ المعرفة تحصل في النفس والقلب عن طريق الروح فإنه لا بدّ من تصفية القلب وتعديل المزاج وتزكية النفس حتى تكون محلاً مستقبلاً وقابلاً ثم جامعاً وواهباً لهذه المعرفة. ومن هنا جاء التصوّف الإسلامي الصحيح المستند على أُسس الشريعة الإسلامية لتصفية النفس من كدورتها وشهواتها الطينيّة، وتصفية القلب من تعلّقه بالدنيا وطاعته العمياء للنفس القويّة المتمرّدة، وتزكية الروح لإصلاح علاقتها بأصلها وجوهرها الذي هو الروح القدسي الإلهي، وتحليلها من قيودها التي حصلت لها لارتباطها بهذا الجسد الفاني. فإذا حصل ذلك كان الرجوع إلى الله تعالى، وهو التوبة الحقيقية، فيدخل القلب على الحضرة الإلهية عبداً محضاً خالياً من تعلّقاته بفنائه عن الدنيا وعن كلّ ما سوى الله تعالى وليس ثم، ثم يخرج إلى العالم مكلّلاً ببهاء النور الإلهي محمّلاً بالمنح والعطايا، مليئاً بالإيمان العيانيّ اليقينيّ، فتصغر الدنيا في عينه ويزهد بها وبما يملك منها لأنه يعلم يقيناً ومشاهدةً أنّ متاع الدنيا قليل ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨﴾ [آل عمران].

وهذا الرجوع الحقيقي أو التوبة إلى الله سبحانه وتعالى ليست مجرّد لفظٍ وقول، بل هي فعلٌ جازمٌ مع استقامةٍ دائمة، وليس ذلك بالأمر اليسير الذي يمكن أن يحصّله كلُّ إنسان، بل يحتاج إلى همّة عالية وإرادة قويّة وضع الإسلام جميع الأسس الموصلة إليها مثل الصوم وجهاد النفس وغيرها، فالناس في ذلك على اختلافٍ كبيرٍ وطبقاتٍ عديدة؛ فمنهم من لا يُعير لذلك بالاً كأنّ الأمر لا يعنيه فيبقى منهمكاً في الدنيا

وملذاتها، ومنهم من يدرك الهول فيسعى إلى الملاذ، وهنا تتفاوت الهمم فيثبت الناصح وينكث الجامح، فمنهم من يدركه التوفيقُ ومنهم من يخونُه الحظّ، ومنهم من ترفعُه العناية، ومنهم من يحطُّه القدَر، وكلُّ ذلك يتعلق بسلامة السريرة وحسن النيّة والإخلاص. ولا بدّ من مُعينٍ لأنّ الطريق طويل: فلا بدّ من الاستعانة بمن سلك الطريق من قبل وعرف مخاطره ومفاوزه وهو الشيخ المرشد الذي قد أذن له بالإرشاد إلى طريق الله تعالى عن طريق شيوخه الذين يتّصلون برسول الله صلّى الله عليه وسلّم بسلاسل الرجال الشيوخ عن طريق الصحابة المقرّبين رضوان الله عليهم أجمعين. وبما أنّ الطريق يتعلق كثيراً بسلوك القلب والروح فكثيراً ما يحصل الاتصال مع أرواح الملائكة والأولياء والأنبياء عليهم الصلاة والسلام سواءً في المنام أو في اليقظة فيوجّهون المُريد إلى الطريق السديد ويكونون له عوناً في الوقت الشديد.

ومع أنه قد التزم مع العديد من الشيوخ المرشدين في أول حياته وتربّى على أيديهم، إلا أنّ رجوع الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي رضي الله عنه إلى الطريق القويم في بداية شبابه كان على يد عيسى ابن مريم عليه السلام، وهو الذي تولاّه في جميع أموره، ثم بعد ذلك كان يتّصل رضي الله عنه بالأنبياء والرسل في المنام ومنهم رسول الله محمد صلّى الله عليه وسلّم. فقد ترك لنا العديد من الكُتب التي كتبها من إلهام الله تعالى له عن طريق الأرواح العليا، كما ختم خزانة كتبه التي حوت المئات من الكتب الفريدة بكتاب فصوص الحكم الذي ناوله إياه نبيُّنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم في رؤيا مبشرة رآه فيها في محروسة دمشق في العشر الأواخر من شهر محرم سنة ٦٢٧ للهجرة، فأبرزه كما هو من غير زيادة ولا نقصان؛ ذلك الكتاب الذي ملأ ذكره الآفاق وله مئات الشروح كما أنه تُرجم إلى العديد من اللغات، رغم وجود بعض العبارات المبهمة التي لا يستطيع الوصول إلى مكنوناتها ومراميها إلا من كان له قلب رشيد أو ألقى السمع وهو شهيد.

فنحن نريد من خلال هذا الكتاب أن نتعرّف على حياة هذا العالِم الجليل الذي شهد له القريب والبعيد وملأت كلماته الأوراق وأضاءت علومه الآفاق:

أشرقت في صفحاتِ الكتبِ ... كلماتُ الشيخ ابن العربي
سافرَتْ أنوارها فوق المدى ... بالهدى فأسفرتْ كالشُهُبِ
واستقرّتْ في القلوب علومُها ... وانطوى فيها ظلام الحجُبِ
واستوت كالشمس تبسط نورها ... بعد أن طلعتْ في المغربِ[٢]

التشبيه بالشمس

إن حياة الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي رضي الله عنه وسيرته تشبه إلى حدٍّ بعيدٍ رحلة الشمس في السماء، حيث تطلع كلّ يوم من جهة الشرق ثم تتسلق مرتفعة نحو بطن السماء، ثم تهبط حتى تغيب وراء الجبال والتلال البعيدة لتختفيَ عن أعيُننا من أجل أن تفاجئنا من جديد في صبيحة اليوم التالي. غير أنّ ابن العربي سلك طريقاً مختلفاً وغير عاديّ، حيث طلعت شمسه من المغرب، في بلاد الأندلس، ثم

[٢] من كلام المؤلف، وهو من بحر الرمل.

ارتحل، بعكس جهة الشمس، إلى المشرق حتى استقرّ الأمر به في الشام، وغابت شمسه هناك. ولقد تجلى ذلك في حياته وسلوكه، فكان أيضاً مختلفاً ومتميّزاً عن جميع أقرانه من علماء الفقه والحديث والتفسير والكلام والفلاسفة؛ حيث يمكن أن نقول غير مبالغين أنه جمع بين جميع هذه العلوم المتفرّقة ففاق بها أهلها المتخصصين بها. فمن يدرس كتبه ويطّلع على مكنوناتها يجد عنده إلى كلّ علم باب وعلى كل سؤال جواب. فنحن لا نبالغ أبداً وكذلك ابن العربي لا يفاخر حين يشبّه نفسه بالشمس؛ فهو حقّاً عالِمٌ جليلٌ، رغم أنّ الذين استطاعوا الغوص في بحار العلوم المبثوثة في كتبه لا يزالون قليل. يقول ابن العربي في ديوانه:

إذا شمسُ النفوس أرت ضُحاها ... تزايدت القلوب بما تلاها

تراها فيه حالاً بعد حالٍ ... ومجلاها الهلالُ إذا تلاها

وإنّي من حقيقته بِرِيّ ... كمثل الشمس إذ تعطي سناها

فما أنا في الوجود سواهُ عيناً ... وما هم في الوجود بنا سواها

فتلك سماؤنا لمّا بناها ... وهذي أرضنا لمّا طحاها

بمن أجلي كان ربّي في شؤون ... وقد بلغت فواكهُهم أناها

سنفرغ منكمُ جوداً إليكمْ ... لتعطي نفوسكم منها مُناها

ويلحمها بذات منه لمّا ... علمت بأنها كانت سداها

يعذّبنا النهار ندىً وويلا ... وليلته يعذّبنا نداها

فغطّاها الظلامُ بسِرّ كوني ... وجلاّها النهار وما جلاها[4]

وهذا التشبيه أو الشبه بين ابن العربي والشمس ليس تشابهاً في الشكل والحركة، ولكنه تشابهٌ عميقٌ في المغزى والحقيقة، وهو ينسحب على الكثير من التفاصيل كما سنرى لاحقاً. في الحقيقة لقد بدأت رحلة ابن العربي، مثل الشمس، من المشرق، من الجزيرة، من منبع الإسلام، ومنبع الحضارات؛ غير أنه بدأ في الباطن – في عالم الذرّ – في ظهور أجداده من قبيلة طيءٍ التي اشتهرت، كالشمس، بالجود والسخاء والكرم. فانتقل الشيخ الأكبر محمد ابن العربي في ذراري آبائه من اليمن في جزيرة العرب إلى المغرب، إلى الأندلس، وكأنه كان على موعد هناك لكي يولد في جنة الله على الأرض؛ حتى تُرضعه الطبيعة أصفى لبنٍ وتوفد إليه أعذبَ نسيم، وتهبه نفائس العلوم ودُرر المعارف، ليسري بها من جديد إلى مطلع الشمس في المشرق حتى تفيض مزيداً من النور وتهب مزيداً من العطاء.

فعلى عكس مسيرة الشمس، أشرقت شمس محيي الدين من الغرب، ثم ارتحل مقتفيا الطريق نفسه الذي أتى منه حين كان ما يزال في عالم الذرّ، وكأنه يريد أن يكشف لنا في تلك الدورة المعكوسة سرّ المعرفة؛ ذلك السرّ الذي يمثّل أساس العلاقة بين الحق والخلق، بين الوجود والعدم، بين الروح والجسم، بين النهار والليل، وبين النور والظلمة؛ فالله هو الذي ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى

[4] الديوان: ص١٦٣.

ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى)،[3] حيث يتبادل الباطن والظاهر الأدوار، فالكل يدور في أدوار، كما قال الله تعالى في سورة يس(وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾)، فيظهر الباطن ثم يعود الظاهر إلى الباطن، ويسافر الأول إلى الآخر ويعود الآخر إلى الأول، و(هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ)،[4] فـ(إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ)،[5] أي هو نفسه سبحانه وتعالى يبدأ الخلق ثم يعيده، (قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾)،[6] وهذا (أي بدء الخلق وإعادته وحركته الدورية)[7] هو أصل سرّ العلم الذي اختُصّ به الشيخ الأكبر والذي أطلعنا على بعضه في كتبه وسكت عن أكثره إلا عن طريق الإشارة لفتح البريد أمام المريد:

خُصصتُ بعلمٍ لم يُخصّ بمثله ... سواي من الرحمن ذي العرش والكرسي
وأشهدتُ من علم الغيوبِ عجائباً ... تُصان عن التّذكارِ في عالم الحسّ
فيا عجباً أني أروح وأغتدي ... غريباً وحيداً في الوجود بلا جنسِ
لقد أنكر الأقوام قولي وشنّعوا ... عليّ بعلمٍ لا ألوم به نفسي
فلا هُم مع الأحياء في نور ما أرى ... ولا هُم مع الأموات في ظلمة الرمسِ
فسبحان من أحيى الفؤاد بنوره ... وأفقدهم نورَ الهداية بالطمسِ
علومٌ لنا في عالم الكون قد سرت ... من المغرب الأقصى إلى مطلع الشمسِ
تحلّى بها من كان عقلا مجرّداً ... عن الفكرِ والتخمينِ والوهمِ والحدسِ
وأصبحتُ في بيضاء مثلي نقيّة ... إماماً، وإن الناس منها لفي لبسِ[10]

---

[3] سورة الزمر: آية ٥.

[4] سورة الحديد: آية ٣.

[5] سورة يونس: آية ٤.

[6] سورة يونس: آية ٣٤.

[7] في الحقيقة فإنّ هذه الآيات وأمثالها في القرآن الكريم لا تتحدّث فقط عن إعادة الخلق يوم القيامة كما يُفهم من ظاهرها لأول وهلة، بل الله سبحانه وتعالى يبدؤ الخلق ثم يعيده في كلّ آنٍ من الزمن حيث يخلق السموات والأرض في ستة أيام أي في ست جهات وهي جهات الفضاء ذي الأبعاد الثلاثة. فنحن نرى الخلق مستمرًا في الزمان وكأنّ الوجود يتجدّد عليه وهو ليس كذلك بل هو دائماً في خلق جديد وليس متجدد لأنه لا تكرار في الوجود ونحن في لبس من هذا كما قال الله تعالى في سورة ق (بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾) وذلك لأنه سبحانه وتعالى قال في سورة الكهف (مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾)، فلو شهدنا ذلك لرأينا كيف يخلق الله السموات والأرض ويخلقنا في ستة أيام ثم يستوي على العرش. وهذه العلوم القرآنية التي تطالعها في كتب الشيخ محيي الدين تعتبر بحق أساسا لرؤية كونية بديعة لم يتعرّض لها العلماء والفلاسفة قبل ابن العربي ولا بعده، وقد ناقشناها باستفاضة في الأطروحة التي نقوم الآن بإعادة صياغتها باللغة العربية وستنشر قريبا إن شاء الله تعالى.

[10] الديوان: ص٤٩.

فكانت رحلة ابن العربي بهذا الشكل الدوري المخالف لدورة الشمس، والمتميّز عن بقية الخلق، حتى يبيّن لنا هذه المعارف من الأسرار والآيات التي خفيت علينا مع أننا نعيش معها وفيها في كل يوم وفي كل حين.

وإذا لم يكن لابن العربي أي دور في اختيار مكان ولادته، فلا شكّ أنه اختار دمشق من بين بقية المدن، أقدم مدينة مأهولة في التاريخ، والشام من بين بقية البلدان، مهبط عيسى عليه السلام قبل يوم القيام، حتى يستقرّ فيها ويغيب كما تغيب الشمس في كل يوم. فاختار الشيخ الشام بالتحديد لأنها "خيرة (أو صَفوة) الله من أرضه وإليها يَجتبي خيرتَه من عباده (فإنّ الله قد تكفّل لي بالشام وأهله)".[11] ولكن كما أنّ الشمس لا تلبث أن تطلع من بعد أن تغيب، وتسبح في فلكها في السماء، ليلا ونهارا، فكذلك محيي الدين، صاحب الوقت وقطب الزمان،[12] وخاتم دورة الولاية المحمدية، لا تزال شمسه ساطعة في الشرق وفي الغرب، وفي الجنوب وفي الشمال؛ فذكرُه وآثارُه عمّت الآفاق، وعلومه ومعارفه فاضت منها العقول، وأسراره لا تزال تتقلب فيها القلوب وتستريح فيها الأرواح. فكما أنه كان باطناً منذ القِدَم في علم الله أولا ثم في ظهور أجداده واحداً بعد الآخر، فلا يزال حيّاً في قلوب تلاميذه ومريديه، محبيه وعاشقيه، إن شاء الله إلى الأبد.

ولا أدري إن كنت بهذا الكتاب أول من يصف الشيخ الأكبر رضي الله عنه باسم "شمس المغرب"، والذي أعتقده أنّ هذا الاسم ينطبق عليه ويليق به اعتماداً على المؤشرات التي ذكرناها في هذه المقدمة، ولأنه كان حقّاً شخصيةً فريدةً تفوق الوصف وتكاد تكون فوق الخيال كطائر العنقاء[13] كما هو نفسه قد استخدم هذا الاسم لأحد كتبه البديعة (عنقاء مغرب في صفة ختم الأولياء وشمس المغرب) والذي سنأتي على ذكره داخل الكتاب إن شاء الله تعالى. وكما بيّن الباحث دنيس غريل في كتاب "ختم الأولياء" وكما ذكر الشيخ الأكبر نفسه أنه هو على الحقيقة ختم الولاية المحمدية، فهو المقصود إذاً بشمس المغرب، رغم أنّ هذا الاسم يشير أيضاً إلى المهدي عليه السلام كما سنرى في الفصل الرابع عند الحديث عن كتاب عنقاء مغرب.

ولقد ترددت قليلاً في اختيار اسم هذا الكتاب بين "شمس المغرب" و"رحلة العنقاء" مع أنّ الاسمين ربما يكونان متكافآن، ثم اخترت الاسم الأول حتى أؤكد أنّ هذه الشخصيات الفريدة التي يبدو لنا أنها لا تتكرر في تاريخ البشرية إنما هي على الحقيقة موجودة دائماً ولا يخلو منها الزمان ولكنها لا تكون دائماً ظاهرةً وواضحةً للعيان، وكثيراً ما تُنسى ولا تُعار أي اهتمام لأنها كالشمس تعطي نورها ودفئها للجميع ولا يشعر بوجودها المستمر إلا من يطلبها ويبحث عنها ويتابع سيرتها، فتارة تحتجب بالأرض وتارة يخسفها القمر وتارة

---

[11] انظر كنز العمال في سنن الأقوال و الأفعال، للعلامة علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي البرهان فوري، ضبطه وفسر غريبه بكري حياني، صححه ووضع فهارسه ومفتاحه صفوة السقا، مؤسسة الرسالة-بيروت، ١٩٧٩-١٩٨٦، رقم ٣٥٠٢٠. وكذلك ذكره ابن العربي في الوصايا وفي الفتوحات المكية وسنتكلم عن ذلك بالتفصيل في الفصل السادس إن شاء الله تعالى. انظر كذلك أحاديث مشابهة في كنز العمال: حديث رقم٣٥٠١٢-٣٥٠٢٥؛ ج١٢ص٢٧٣-٢٧٦.

[12] في الحقيقة ليس ابن العربي قطباً ولكنه من الأولياء الأفراد الخارجين عن دائرة القطب كما سنشرح معنى ذلك لاحقا. ولكن نقول هنا أنّ القطب هي بالأصل أحد الأفراد ومن مرتبتهم.

[13] العنقاء طير كانت العرب تزعم وجوده في غرائب أساطيرها فقدت حكايته مضرب مثل لكل من أتى بما لا يعرفه الناس.

تكون وراء الجبال أو خلف الغيوم، ولكنها كثيراً ما تتجلى في عرض السماء من غير أن يهتم بها أحد لأنها أصبحت معتادة. فكذلك هو حال طائر العنقاء، الذي هو اسم آخر للقطب، وكذلك رجال الله من الأئمة والأوتاد والأبدال والنجباء وغيرهم من الأولياء، لا يعرفهم إلاّ القليل من الناس الذين ربما لا يعرفون عنهم إلا ما تتناقله الأجيال من أخبارهم، وهم على الحقيقة يعيشون بيننا وربما يستطيع أن يجدهم من يبذل جهده ويفني عمره في البحث عنهم ومعرفة أخبارهم. فلا يخلو الزمان أبداً من أمثال ابن العربي وممن هم أيضاً أعلى منه معرفة ومرتبة ولكنّ الفرق بينه وبينهم أنّه سطّر رضي الله عنه لنا بعض علومه رغم أنّه كان يطلب من الله تعالى أن لا يُظهره بين الناس ويبقيه مجهولا مثل صاحبه ابن جعدون الحناوي الذي كان ذا مرتبة رفيعة ولكنه كان بين الناس مجهولاً إذا حضر لا يوسّع له وإذا تكلّم لا يُؤبه به، كما سنذكره داخل الكتاب، ويقول الشيخ محيي الدين أيضاً أنه قارن نفسه مرّة مع واحد من رجال الله كان عمره عشرة سنين[14] فما وجد نفسه معه إلاّ كدرهم زائف.

من هو الشيخ الأكبر

والشيخُ الأكبر محيي الدين ابن العربي الذي سيضيء ذكرُه زوايا هذا الكتاب إن شاء الله تعالى هو محمدُ بن عليّ بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي الطائي من ولد عبد الله بن حاتم أخي الصحابي الجليل عديّ بن حاتم، ويلقب بمحيي الدين، ويُكنّى أبا عبد الله وأبا بكر ويُعرف بالحاتمي أو الطائي وبابن عربي وفي المغرب بابن العربي وفي الأندلس بابن سراقة، وكذلك يُدعى بسلطان العارفين وإمام المتقين وغيرها من ألقاب التبجيل والتشريف التي تليق به.

وُلد الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي ليلة الاثنين في السابع عشر من شهر رمضان سنة ٥٦٠ للهجرة (٢٦ تموز ١١٦٥ ميلادية) في مدينة مُرسية شرقي الأندلس، ثم انتقل إلى إشبيلية سنة ١١٧٢/٥٦٨ فأقام بها حوالي عشرين عاماً ذهب خلالها إلى المغرب وتونس عدة مرات، وأقام هناك لفترات متقطعة ثم ارتحل إلى المشرق للحج سنة ١٢٠١/٥٩٨ ولم يعد بعدها إلى الأندلس. وفي المشرق أقام في مصر مدة وجيزة ثم دخل مكة وعكف على العبادة والتدريس في المسجد الحرام حيث أفاض الله عليه أسراراً وعلوماً شريفة أودعها في كتابه المعروف بالفتوحات المكية. ثم رحل إلى العراق فدخل بغداد والموصل واجتمع برجالها ثم طاف رضي الله عنه في بلاد الروم فسكن فيها مدة وكان له منزلة عالية عند ملكها المسلم كيكاوس. بعد ذلك قام الشيخ برحلات عديدة بين العراق ومصر وسورية وفلسطين حتى استقر في دمشق سنة ١٢٢٣/٦٢٠ إلى أن وافته المنية ليلة الثاني والعشرين من شهر ربيع الثاني سنة ٦٣٨ للهجرة (١٢٤٠/١١/٩ م) ودفن بسفح جبل قاسيون وتسمى الآن المنطقة التي فيها ضريحه باسمه (الشيخ محيي الدين) حيث يوجد قبره في طرف المسجد الذي بناه السلطان سليم حين فتح دمشق سنة ١٥١٦/٩٢٢. وخلّف رحمه الله ولدان هما سعد الدين محمد وعماد الدين أبو عبد الله محمد.

---

[14] نقصد بالرجال هنا الذين تمكّنوا في طريق الله تعالى، فالرجولة هي الثبات والتمكين.

قرأ الشيخ محيي الدين القرآن في إشبيلية على الشيخ أبي بكر بن خلف بالقراءات السبع بالكتاب الكافي ودرس التفسير وسمعه عن عدد من المؤلفين أو من يروي عنهم، منهم أبو بكر محمد بن أبي جمرة عن أبيه عن الداني مؤلف كتاب التيسير، ومنهم ابن زرقون وأبي محمد عبد الحق الإشبيلي الأزدي وغيرهم كثير. وسمع الحديث أيضاً من أبي القاسم الخزستاني وغيره، وسمع صحيح مسلم من الشيخ أبي الحسن بن أبي نصر.

برع الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي في علم التصوف وكتب فيه المئات من الكتب والرسائل زاد عددها عن خمسمائة كتاب على حدّ قول عبد الرحمن جامي صاحب كتاب "نفحات الأنس". أحد هذه المؤلفات وأهمها هو كتاب "الفتوحات المكية" والذي هو بحق أهم مؤلّف في التاريخ الإسلامي بل من أهم الكتب في تاريخ البشرية. ومن مؤلفاته أيضاً كتاب "تفسير القرآن" الذي يقول فيه صاحب كتاب فوات الوفيات أنه يبلغ خمساً وتسعين مجلداً وربما هذا هو كتاب التفسير الكبير الذي بلغ فيه إلى سورة الكهف عند الآية: "وعلمناه من لدنا علما"، ثم توفي قبل أن يتمّه. وله أيضاً: "فصوصُ الحِكَم" الذي يقول في مقدمته أنه رأى الرسول محمد صلّى الله عليه وسلّم في المنام وأعطاه كتابا وقال له أخرجه للناس ينتفعون به، فأخرجه كما هو من غير زيادة ولا نقصان. وله أيضاً من الكتب: "محاضرة الأبرار"، "إنشاء الدوائر"، "عقلة المستوفز"، "عنقاء مغرب في صفة ختم الأولياء وشمس المغرب"، "ترجمان الأشواق"، "التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية"، "مواقع النجوم ومطالع أهلّة أسرار العلوم"، "الجمع والتفصيل في حقائق التنزيل"، "الجُذوة المقتبسة والخطرة المختلسة"، "كشف المعنى في تفسير الأسماء الحسنى"، "المعارف الإلهية"، "الإسرا إلى المقام الأسرى"، "مشاهد الأسرار القدسية ومطالع الأنوار الإلهية"، "الفتوحات المدنية"، "الأحاديث القدسية"، وغيرها الكثير من الرسائل الصغيرة. ولقد قام الدكتور عثمان يحيى رحمه الله بتأليف كتاب قيّم حول مؤلفات الشيخ الأكبر سمّاه: مؤلفات ابن العربي تاريخها وتصنيفها، وهو باللغة الفرنسية ثم ترجمه الدكتور أحمد الطيبي إلى اللغة العربية ونشر عام ٢٠٠١ من قبل الهيئة المصرية العامة للكتاب. وسنذكر في آخر هذا الكتاب إن شاء الله تعالى ملحقاً عن أسماء كتب الشيخ الأكبر رضي الله عنه.

لقد أجمع الكتّاب والباحثون المختصون أنّ الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي لم يكن مؤلّفاً عادياً مثل غيره من المؤلّفين، بل كان يتميّز عن غيره بالكمّ والكيف، وهو نفسه يؤكد أنه لا يجري مجرى المؤلّفين الذين يكتبون عن فكر ورويّة، وإنما جميع ما يكتبه هو من إلهام الله تعالى له كما سنرى. وقد وصفه بروكلمان بأنه من أخصب المؤلفين عقلاً وأوسعهم خيالاً.

ولقد وردت ترجمة محيي الدين ابن العربي في العديد من كتب التاريخ وتراجم الرجال نذكر منها: "المختصر المحتاج إليه": ج١٥ص٥٨ برقم ١٩٧، "التكملة لوفيات النقلة": ج٣ص٥٥٥ برقم ٢٩٧٢، "سير أعلام النبلاء": ج٢٣ص٤٨ برقم ٣٤، "تاريخ الإسلام": (سنة ٦٣١-٦٤٠) ص٣٥٢ برقم ٥٤٩، "الوافي بالوفيات": ج٤ص١٧٣ برقم ١٧١٣، "فوات الوفيات": ج٣ص٤٣٥ برقم ٤٨٤، "مرآة الجنان": ج٤ص١٠٠، "البداية والنهاية": ج١٣ص١٦٧، "غاية النهاية": ج٢ص٢٠٨ برقم ٣٢٧٧، "النجوم الزاهرة": ج٦ص٣٣٩،

"طبقات المفسرين للسيوطي": ص٩٨ برقم ١١٥، "طبقات المفسرين للداودي": ج٢ص٢٠٤ برقم ٥٤١، "نفح الطيب": ج٢ص١٦١ برقم ١١٣، "شذرات الذهب": ج٥ص١٩٠، "روضات الجنات": ج٨ص٥١ برقم ٦٨٥، "الكنى والألقاب": ج٣ص١٦٤، "الأعلام": ج٦ص٢٨١، "معجم المؤلفين": ج١١ص٤٠.

ولا بدّ أن نشير هنا إلى أنّ الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي الذي نحن في حضرته هو غير العالم الجليل القاضي أبي بكر محمد بن عبد الله ابن العربي المعافري الإشبيلي المالكي المولود بإشبيلية سنة ٤٦٨ هجرية المشهور في الفقه والأصول والحديث وله العديد من المؤلفات منها "قانون التأويل" و"أحكام القرآن" و"أنوار الفجر" و"الناسخ والمنسوخ والقبس في شرح موطأ الإمام مالك" و"العواصم من القواصم".[١٥] وفي بعض الأحيان يخطئ بعض الدارسين بين هذين العالمين الجليلين وينقلون أقوالاً أو كتباً لأحدهما باسم الآخر. ومن أجل ذلك بدأ أهل المشرق يفرّقون بينهما بحيث يسمّون الشيخ الأكبر بابن عربي (بدون التعريف) والقاضي أبا بكر بابن العربي (مع التعريف). ولكن هذا الاصطلاح لم يعُمّم خاصة وأن الشيخ الأكبر كان، منذ ولادته وكذلك بعض أعمامه وأجداده، يدعى بابن العربي كما ذكر هو في الكثير من كتبه وكذلك كما ذكر تلاميذه الأوائل. وبالعموم نجده في كثيرٍ من المراجع يدعى بهذا الاسم مع التعريف وبدونه، والأصحّ مع التعريف كما كان هو ينسب نفسه، وكما يوقّع اسمه في كتبه، ولكن يتم التفريق بين هذين العالمين الجليلين بأن الأول هو القاضي أبو بكر ابن العربي والثاني محيي الدين ابن العربي، مع أنه أيضاً يدعى أحياناً أبا بكر،[١٦] وغالباً أبا عبد الله، وهو الأصح، وإذا لم يُذكر ذلك في بعض الكتب فيسهل التمييز بينهما من سياق الكلام بسبب التخصّص لأن الأول فقيه والثاني صوفي.

وفي التاريخ الإسلامي عُرف الكثير من الرجال بهذا اللقب حيث ذكر ابن ماكولا في "الإكمال" بعض هؤلاء الرجال منهم: الزبير بن عربي أبو سلمة النميري البصري، والنضر بن عربي، وإبراهيم بن عربي الكوفي، ويعقوب بن عربي الكوفي، ويحيى بن حبيب بن عربي البصري، وعبد الله بن محمد بن سعيد بن عربي الطائفي، وحسين بن عربي البصري، ومحمد بن يوسف بن عربي البصري.[١٧]

ويبدو أنّ أحمد بن عبد الله الحاتمي، الذي هو والد جدّ الشيخ محيي الدين، هو الذي كان يسمى بـ"العربي"، فكان ابنه محمد يسمى بـ"ابن العربي"، ومن أبناء محمد والد الشيخ محيي الدين واسمه "علي"، والشيخ محيي الدين اسمه محمد أيضاً، على اسم جدّه، فهو محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي، وهو يوقّع اسمه في كتبه بـ"محمد بن علي بن محمد ابن العربي الطائي الحاتمي".

وبالإضافة إلى هذا اللقب الذي عُرف به منذ بداية حياته فكثيراً ما يدعوه مريدوه بألقاب التعظيم

---

[١٥] لمزيد من التعريف بالقاضي أبي بكر ابن العربي وسيرته راجع كتاب "نفح الطيب" للمقري التلمساني: ج٢ص٢٥-٤٣، ٦٠، ٨٥، ١٥٨، ١٧٥، ٥٧٦، ٥٩٩، ٦٠٠، ٦١٧، ٦٢٦، ٦٤٢، ٦٤٤، ج٣ص١٨٠، ٤٠١، ج٤ص٤٦١، ٤٧٦، ج٥ص٣٣٨، ٣٥٠، ج٦ص٢٧٧.

[١٦] روح القدس: ص٤٨.

[١٧] الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب: علي بن هبة الله ابن ماكولا، اعتنى بتصحيحه والتعليق عليه: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، ١٩٦٢-١٩٦٧، باب: عربي وعُرَي، ج٦ص١٧٦-١٧٨.

والتبجيل مثل سلطان العارفين، وإمام المتقين، ومربي الشيوخ والمريدين، والكبريت الأحمر[١٨] إلى غير ذلك من ألقاب التفخيم والتبجيل التي يستحقها. وابتداءً من القرن العاشر الهجري، بعد أن فتح السلطان سليم الأول دمشق سنة ٩٢٢ للهجرة وأمر بتشييد مسجد الشيخ محيي الدين وبناء ضريحه إلى جانبه، أصبح ابن العربي يُعرف باسم الشيخ الأكبر.

عقيدته ومذهبه

لا نريد هنا أن نستبق الأمور ونعجل في سرد النصوص، ولكن موضوع عقيدة الشيخ الأكبر أمرٌ مهمٌ يجب توضيحه منذ البداية لأنه كثيراً ما يكون مجال جدالٍ بين بعض الفئات من المسلمين الذين لا يتقبّلون كلامه وينتقدونه وكثيراً ما يكفّرونه ويرمونه زوراً بالزندقة بسبب ذلك. وسوف نخصص جزءاً كبيراً من الفصل السابع والأخير من هذا الكتاب لمناقشة بعض هذه الآراء إن شاء الله تعالى، ولكن لا بأس هنا من ذكر العقيدة العامة للشيخ الأكبر رضي الله عنه كما ذكرها هو نفسه وأشهدَ الناس عليها.

لقد صرّح الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي عن عقيدته في بداية كتاب الفتوحات المكية وهي أيضاً رسالة "عقيدة أهل الإسلام"، حتى لا يرميه الجهّال بالإلحاد أو الكفر حين لن يفهموا أكثر ما يسطره من العلوم النفيسة الرفيعة التي لا تنالها العقول الضعيفة والقلوب السقيمة، وكأنه قد تنبّأ بما سيحدث في هذا الشأن فخفّف من وطأته. ولكن الشيخ الأكبر أيضاً قال إنّ العقيدة عنده لها أربعة مراتب: أولاها هي عقيدة العوام من أهل الإسلام، أهل التقليد وأهل النظر، وهي التي سنذكرها أدناه، وهي العقيدة العامة التي يجب على كلّ المسلمين إتّباعها وخلاصتها أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ولكنه يضيف بعض التفصيل العام لتنزيه الله تعالى عما تصفه به بعض الفرق مثل المجسّمة والمشبّهة وغيرهم.

والمرتبة الثانية من العقيدة يسميها الشيخ عقيدة الناشئة الشادية، وهي التي تتضمن مآخذ الأدلة في الفلسفة الإسلامية والتي يحتاج إليها من يناقش العلماء والفلاسفة، وقد ذكرها الشيخ محيي الدين أيضاً في بداية الفتوحات المكية بلفظ مسجوع وعبارة موجزة، وسماها أيضاً "رسالة المعلوم من عقائد أهل الرسوم".

والمرتبة الثالثة في العقيدة هي عقيدة خواص أهل الله، من أهل طريق الله، من المحققين أهل الكشف والوجود، وقد ذكرها الشيخ الأكبر أيضاً في كتاب سماه "المعرفة".

وأما المرتبة الرابعة فهي عقيدة الخلاصة الذين هم خلاصة خواص أهل الله تعالى، فما أفردها الشيخ الأكبر على التعيين ولم يصرّح بها، لما فيها من الغموض، ولكن جاء بها مبدّدة في أبواب الفتوحات المكية مستوفاةً مبيّنةً، لكنها كما يقول متفرقة: فمن رزقه الله الفهم فيها يعرف أمرها ويميزها من غيرها، فإنها، كما يقول الشيخ الأكبر، العلم الحق والقول الصدق، وليس وراءها مرمى، ويستوي فيها البصير والأعمى، تلحق الأباعد بالأداني، وتلحم الأسافل بالأعالي، فالأمر كلّه دوري، ونهاية الدائرة متصلة ببدايتها.

وتماشياً مع ذلك، فمع أننا عنونّا هذا الكتاب باسم (سيرة الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي

---

[١٨] الكبريت الأحمر هو رمز للإكسير المفترض الذي يحول المعادن إلى ذهب.

ومذهبه)، فإننا لن نخصص أي جزء أو فقرات محددة لدراسة مذهب الشيخ محيي الدين كما فعل أسين بلاثيوس مثلاً في كتابه الذي قسمه إلى قسمين الأول عرض فيه حياة الشيخ والثاني عرض فيه مذهبه. وقد آثرنا نثر بعض الجوانب المختلفة لمذهب الشيخ محيي الدين على فقرات هذا الكتاب كلّما اعترضنا لذكر شيءٍ من ذلك من خلال دراسة سيرته وكذلك من خلال ذكر بعض تفاصيل سيرة الشيوخ الذين تعامل معهم الشيخ محيي الدين أو ذكرهم، فهو كثيراً ما يستخدم هذا الأسلوب في تحديد معالم مذهبه على ألسنة العلماء والشيوخ الذين يعرفهم أو ممن هم معروفين في تاريخ الإسلام والصوفية تحديداً كأبي يزيد البسطامي وأبي حامد الغزالي وغيرهم. وأما لمعرفة تفاصيل مذهب الشيخ محيي الدين كاملة، فليس هناك بديل عن قراءة كتبه نفسها، ولا يمكن لأي باحث أن يحيط بذلك علماً، وقد نسيء له إذا ما ذكرنا طرفاً قليلاً من ذلك وأهملنا الباقي، إلا على سبيل الإشارة.

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه المراتب الأربعة من العقيدة ما هي مراتب متباينة ومتناقضة وإنما هي مراتب متوافقة ومتكاملة، ولكن لا يمكن أن نطلب من جميع الناس أن يكونوا فلاسفة متكلمين، كما لا نتوقع من جميع المتكلمين أن يكونوا محققين وذائقين، والذوق له مراتب ومشارب أعلاها وأصفاها مرتبة الأبرار المقربين الذين يشربون من الرحيق المختوم، ختامه مسك ومزاجه من تسنيم، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

ونحن هنا سنذكر نصّ العقيدة العامة كما وردت في كتاب الفتوحات المكية، رغم طولها، حيث أنها أصلٌ ينفي كلّ ادّعاءٍ ينتقصُ من منزلة الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي. ولقد قسم الشيخ رضي الله عنه هذه الشهادة إلى قسمين الأول أن لا إله إلا الله والثاني أنّ محمداً رسول الله، فيقول بعد تقديم عن ضرورة الشهادة:

"فيا إخوتي ويا أحبائي رضي الله عنكم، أشهدكم عبد ضعيف مسكين فقير إلى الله تعالى في كل لحظة وطرفة، وهو مؤلف هذا الكتاب ومنشئه، أشهدكم على نفسه بعد أن أشهدَ الله تعالى وملائكته ومن حضره من المؤمنين وسمعه أنه يشهد قولا وعقدا أنّ:

الله تعالى إله واحد لا ثاني له في ألوهيته، منزه عن الصاحبة والولد، مالك لا شريك له، ملك لا وزير له، صانع لا مدبر معه، موجود بذاته من غير افتقار إلى موجد يوجده، بل كل موجود سواه مفتقر إليه تعالى في وجوده، فالعالم كله موجود به، وهو وحده متصف بالوجود لنفسه، لا افتتاح لوجوده، ولا نهاية لبقائه، بل وجود مطلق غير مقيد، قائم بنفسه، ليس بجوهر متحيّز فيُقدّر له المكان، ولا بعرض فيستحيل عليه البقاء، ولا بجسم فتكون له الجهة والتلقاء، مقدس عن الجهات والأقطار، مرئي بالقلوب والأبصار، إذا شاء استوى على عرشه كما قاله وعلى المعنى الذي أراده، كما أنّ العرش وما سواه به استوى، وله الآخرة والأولى، ليس له مثل معقول، ولا دلّت عليه العقول، لا يحدّه زمان ولا يُقلّه مكان، بل كان ولا مكان وهو على ما عليه كان، خلق المتمكّن والمكان، وأنشأ الزمان، وقال أنا الواحد الحيّ، لا يؤوده حفظ المخلوقات، ولا ترجع إليه صفة لم يكن عليها من صنعة المصنوعات، تعالى أن تحلّه الحوادث أو يحلّها، أو تكون بعده أو يكون

قبلها، بل يقال كان ولا شيء معه، فإن القبل والبعد من صيغ الزمان الذي أبدعه، فهو القيّوم الذي لا ينام، والقهّار الذي لا يُرام، ليس كمثله شيء، خلق العرش وجعله حدّ الاستواء، وأنشأ الكرسي وأوسعه الأرض والسماوات العلى، اخترع اللوح والقلم الأعلى، وأجراه كاتبا بعلمه في خلقه إلى يوم الفصل والقضاء، أبدع العالم كله على غير مثال سبق، وخلق الخلْق وأخلق (أي أبلى) الذي خلق، أنزل الأرواح في الأشباح أمناء، وجعل هذه الأشباح المنزلة إليها الأرواح في الأرض خلفاء، وسخّر لنا ما في السموات وما في الأرض جميعا منه، فلا تتحرك ذرة إلا إليه وعنه، خلق الكل من غير حاجة إليه، ولا موجب أوجب ذلك عليه، لكنّ علمه سبق بأن يخلق ما خلق، فهو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو على كل شيء قدير، أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا، يعلم السر وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، كيف لا يعلم شيئا هو خلقه، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير، علم الأشياء منها قبل وجودها، ثم أوجدها على حد ما علمها، فلم يزل عالما بالأشياء، لم يتجدد له علم عند تجدد الإنشاء، بعلمه أتقن الأشياء وأحكمها، وبه حكَم عليها من شاء وحكمها، علم الكليات على الإطلاق، كما علم الجزئيات بإجماع من أهل النظر الصحيح واتفاق، فهو عالم الغيب والشهادة، فتعالى الله عما يشركون، فعّال لما يريد، فهو المريد الكائنات في عالم الأرض والسموات، لم تتعلق قدرته بشيء حتى أراده، كما أنه لم يُرده حتى علمه، إذ يستحيل في العقل أن يريد ما لا يعلم أو يفعل المختار المتمكن من ترك ذلك الفعل ما لا يريد، كما يستحيل أن توجد نسب هذه الحقائق في غير حي، كما يستحيل أن تقوم الصفات بغير ذات موصوفة بها، فما في الوجود طاعة ولا عصيان، ولا ربح ولا خسران، ولا عبد ولا حُر، ولا برد ولا حَر، ولا حياة ولا موت، ولا حصول ولا فوت، ولا نهار ولا ليل، ولا اعتدال ولا ميل، ولا برّ ولا بحر، ولا شفع ولا وتر، ولا جوهر ولا عرض، ولا صحة ولا مرض، ولا فرح ولا ترح، ولا روح ولا شبح، ولا ظلام ولا ضياء، ولا أرض ولا سماء، ولا تركيب ولا تحليل، ولا كثير ولا قليل، ولا غداة ولا أصيل، ولا بياض ولا سواد، ولا رقاد ولا سهاد، ولا ظاهر ولا باطن، ولا متحرك ولا ساكن، ولا يابس ولا رطب، ولا قشر ولا لب، ولا شيء من هذه النسب المتضادات منها والمختلفات والمتماثلات إلا وهو مراد للحق تعالى، وكيف لا يكون مرادا له وهو أوجده، فكيف يوجد المختار ما لا يريد، لا رادّ لأمره ولا معقّب لحكمه، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء، ويضلّ من يشاء ويهدي من يشاء، ما شاء كان وما لم يشأ أن يكون لم يكن، لو اجتمع الخلائق كلهم على أن يريدوا شيئا لم يُرد الله تعالى أن يريدوه ما أرادوه، أو يفعلوا شيئا لم يُرد الله تعالى إيجاده وأرادوه عندما أراد منهم أن يريدوه ما فعلوه، ولا استطاعوا على ذلك ولا أقدرهم عليه، فالكفر والإيمان والطاعة والعصيان من مشيئته وحكمه وإرادته،[10] ولم يزل سبحانه موصوفا بهذه الإرادة أزلاً والعالم معدوم غير موجود، وإن كان ثابتا في العلم في عينه، ثم أوجد العالم من غير تفكر ولا تدبر عن جهل أو عدم علم فيعطيه التفكر والتدبر علم ما جهل، جلّ وعلا عن ذلك، بل أوجده عن العلم السابق وتعيين الإرادة المنزهة الأزلية القاضية على العالم بما أوجدته عليه من زمان ومكان وأكوان وألوان، فلا مُريد في الوجود على الحقيقة سواه، إذ هو القائل سبحانه: وما تشاؤون إلاّ أن يشاء الله، وإنه سبحانه كما علم فأحكم وأراد

[10] لا يلزم من الرضى بالقدر الرضى بالمقدور، فالكفر مقدور والله لا يرضى لعباده الكفر ولكنه سبحانه قدّر على بعض عباده أن يكفروا.

فخصّص وقدّر فأوجد: كذلك سمع ورأى ما تحرك أو سكن أو نطق في الورى من العالم الأسفل والأعلى، لا يحجب سمعه البعد فهو القريب، ولا يحجب بصره القرب فهو البعيد، يسمع كلام النفس في النفس، وصوت المماسة الخفية عند اللمس، ويرى السواد في الظلماء والماء في الماء، لا يحجبه الامتزاج ولا الظلمات ولا النور، وهو السميع البصير، تكلم سبحانه لا عن صمت متقدم ولا سكوت متوهم بكلام قديم أزلي كسائر صفاته من علمه وإرادته وقدرته، كلم به موسى عليه السلام، سماه التنزيل والزبور والتوراة والإنجيل، من غير حروف ولا أصوات، ولا نغم ولا لغات، بل هو خالق الأصوات والحروف واللغات، فكلامه سبحانه من غير لهاة ولا لسان، كما أن سمعه من غير أصمخة ولا آذان، كما أن بصره من غير حدقة ولا أجفان، كما أن إرادته في غير قلب ولا جنان، كما أن علمه من غير اضطرار ولا نظر في برهان، كما أن حياته من غير بخار تجويف قلب حدث عن امتزاج الأركان، كما أن ذاته لا تقبل الزيادة والنقصان، فسبحانه سبحانه من بعيد دان، عظيم السلطان، عميم الإحسان، جسيم الامتنان، كل ما سواه فهو عن جوده فائض، وفضله وعدله الباسط له والقابض، أكمل صنع العالم وأبدعه حين أوجده واخترعه، لا شريك له في ملكه، ولا مدبر معه في ملكه، إن أنعم فنعَم فذلك فضله، وإن أبلى فعذّب فذلك عدله، لم يتصرف في ملك غيره فينسب إلى الجور والحيف، ولا يتوجه عليه لسواه حكم فيتصف بالجزع لذلك والخوف، كل ما سواه تحت سلطان قهره ومتصرفٌ عن إرادته وأمره، فهو الملهم نفوس المكلفين التقوى والفجور، وهو المتجاوز عن سيّئات من شاء والآخذ بها من شاء هنا وفي يوم النشور، لا يحكم عدله في فضله، ولا فضله في عدله، أخرج العالم قبضتين، وأوجد لهم منزلتين فقال: هؤلاء للجنة ولا أبالي وهؤلاء للنار ولا أبالي، ولم يعترض عليه معترض هناك إذ لا موجود كان ثَمّ سواه، فالكل تحت تصريف أسمائه، فقبضة تحت أسماء بلائه، وقبضة تحت أسماء آلائه، ولو أراد سبحانه أن يكون العالم كله سعيداً لكان، أو شقياً لما كان من ذلك في شأن، لكنه سبحانه لم يرد: فكان كما أراد، فمنهم الشقي والسعيد، هنا وفي يوم المعاد، فلا سبيل إلى تبديل ما حكم عليه القديم، وقد قال تعالى في الصلاة: هي خمس وهي خمسون، ما يبدل القول لديّ وما أنا بظلام للعبيد، لتصرفي في ملكي وإنفاذ مشيئتي في ملكي، وذلك لحقيقة عميت عنها الأبصار والبصائر، ولم تعثر عليها الأفكار ولا الضمائر، إلا بوهب إلهي وجود رحماني لمن اعتنى الله به من عباده، وسبق له ذلك بحضرة إشهاده، فعلم حين أُعلم أن الألوهة أعطت هذا التقسيم، وأنه من رقائق القديم، فسبحان من لا فاعل سواه ولا موجود لنفسه إلا إياه، والله خلقكم وما تعملون، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، فلله الحجة البالغة، فلو شاء لهداكم أجمعين.

الشهادة الثانية: وكما أشهدت الله وملائكته وجميع خلقه وإياكم على نفسي بتوحيده، فكذلك أشهده سبحانه وملائكته وجميع خلقه وإياكم على نفسي بالإيمان بمن اصطفاه واختاره واجتباه من وجوده: ذلك سيدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم، الذي أرسله إلى جميع الناس كافة بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، فبلّغ صلّى الله عليه وسلّم ما أنزل من ربه إليه وأدّى أمانته، ونصح أمته، ووقف في حجة وداعه على كل من حضر من أتباعه، فخطب وذكّر، وخوّف وحذّر، وبشّر وأنذر، ووعد وأوعد، وأمطر وأرعد، وما خصّ بذلك التذكير أحدا من أحد، عن إذن الواحد الصمد، ثم قال: ألا هل بلغت؟ فقالوا: بلّغت يا رسول الله،

فقال صلّى الله عليه وسلّم: اللهمّ اشهد، وإني مؤمن بكل ما جاء به صلّى الله عليه وسلّم مما علمت وما لم أعلم، فمما جاء به فقرّر أن الموت عن أجل مسمّى عند الله إذا جاء لا يؤخر، فأنا مؤمن بهذا إيمانا لا ريب فيه ولا شك، كما آمنت وأقررت أن سؤال فتّاني القبر حق، وعذاب القبر حق، وبعث الأجساد من القبور حق، والعرض على الله تعالى حق، والحوض حق، والميزان حق، وتطاير الصحف حق، والصراط حق، والجنة حق، والنار حق، وفريقا في الجنة وفريقا في النار حق، وكرب ذلك اليوم حق، على طائفة وطائفة أخرى لا يحزنهم الفزع الأكبر، وشفاعة الملائكة والنبيين والمؤمنين وإخراج أرحم الراحمين بعد الشفاعة من النار من شاء حق، وجماعة من أهل الكبائر المؤمنين يدخلون جهنم ثم يخرجون منها بالشفاعة والامتنان حق، والتأبيد للمؤمنين والموحدين في النعيم المقيم في الجنان حق، والتأبيد لأهل النار في النار حق، وكل ما جاءت به الكتب والرسل من عند الله عُلم أو جُهل حق.

فهذه شهادتي على نفسي أمانة عند كل من وصلت إليه أن يؤديها إذا سئلها حيثما كان، نفعنا الله وإياكم بهذا الإيمان، وثبتنا عليه عند الانتقال من هذه الدار إلى الدار الحيوان، وأحلنا منها دار الكرامة والرضوان، وحال بيننا وبين دار سرابيلها من القطران، وجعلنا من العصابة التي أخذت الكتب بالأيمان، وممن انقلب من الحوض وهو ريّان، وثقل له الميزان، وثبتت له على الصراط القدمان، إنه المنعم المحسان، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحق."[20]

فأي حجّة بعد هذا لمن يتّهم الشيخ الأكبر ويرميه بالكفر والزندقة من غير أن ينظر في كتبه ومقولاته ويتبيّن الحق من الباطل، فيقول الله تعالى في سورة الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾، وفي سورة الأحزاب: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنٗا وَإِثْمٗا مُّبِينٗا ۝٥٨﴾.

اختلاف الناس حوله

ولكننا مع ذلك نرى أن الكثير من المسلمين وحتى العلماء منهم لم يستطيعوا استيعاب ما جاء به الشيخ الأكبر لأنهم لم يقدروا أن يغوصوا في بحار كتبه فرفضوها من أول وهلة من غير أن يعيروها الاهتمام اللازم. وكثيراً ما نقلوا عنه أقوالاً مدسوسةً أو منقوصةً من غير أن يتبيّنوا أصلها ومصدرها أو قصده وغايته، حتى رموه بالفساد وبالكفر وحرّموا قراءة كتبه وكفّروا من يعتقد به وحتى من لا يكفّره. وربما كان ذلك من رحمة الله تعالى بالمسلمين أن سخّر لهم من يصدهم عن الخوض في كتب الشيخ الأكبر ورفض كلامه! حيث أن بعض الناس لا يستطيع الصمود والخوض في مثل هذه العلوم العميقة التي لا يجوز أن تُقرأ من غير رويّة وتسليم واستعداد، ولذلك نجد أن بعض الشيوخ المعترفين بفضل الشيخ الأكبر يحرّمون على مريديهم المبتدئين قراءة كتبه خشية إساءة فهمها، فربما يؤدّي بهم الأمر لفساد عقيدتهم الهشّة أو للكفر والعياذ بالله.

---

[20] مقدمة الفتوحات المكية وكتاب عقيدة أهل الإسلام لابن العربي.

ومن هنا نجد معنى قول بعضهم أن رحمة الأمة في اختلاف الأئمة،[21] شريطة أن لا يكون الاختلاف سبباً في النزاع كما هو الحال أسفاً في أغلب الأحيان. فلا بأس من تخطيء ابن العربي، فما هو بمعصوم، ولكن ليس هناك داعٍ لتكفيره من غير بيّنة ودليلٍ قاطعٍ. فمن ثبت له عقد الإيمان بيقين لا يُخرج منه إلا بيقين.

ولقد انقسم الناس عبر العصور التي تلت ابن العربي إلى مؤيّد ومندّد حتى إن الكثير من المؤرخين كانوا يميّزون الرجال من خلال موقفهم من الشيخ الأكبر، كما سنفصّل ذلك في الفصل الأخير من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى. ولكن لا يجوز رفض العلم الذي لا يوافق أهواءنا إلا إذا كان لدينا ما ينفيه بشكل قاطع مما ثبت في القرآن والسنة. وفي كل الأحوال لا يجوز قذف الرجال لما ورد عنهم حتى وإن كانوا قد أخطؤوا فليس علينا من حسابهم من شيء بل حسابهم على الله تعالى، وإن كان لا بدّ من النصيحة لتبيين أخطاء الآخرين فنفعل ذلك بأسلوبٍ إسلامي سليمٍ من غير سبٍّ ولا شتمٍ ولا تكفيرٍ. ولكن البعض بالغوا في نقد الشيخ الأكبر فاتهموه زوراً بالكفر والفسق والإلحاد، وما ظلموا في ذلك غير أنفسهم. ففي جميع الأحوال لا يجوز تكفير أحد لم يعجبنا قوله، طالما هو يشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فمن صحّ إسلامه بيقين لا يجوز تكفيره بغير يقين، لأن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال في الحديث الصحيح: "أَيُّمَا امْرِئٍ قَالَ لأَخِيهِ: يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا: إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ، وَإِلاَّ رَجَعَتْ عَلَيْهِ".[22]

أما بالنسبة للشيوخ المعترفين بفضل الشيخ محيي الدين ومرتبته ولكنهم يمنعون مريديهم من قراءة كتبه خشيةً عليهم من الفتنة بما فيها من المعارف العميقة الغور، فقد يكون هذا الأمر مبرّراً في بعض الأحيان، ولكن الأمر اليوم قد تغيّر مع تقدّم وسائل الإعلام والاتصال وتعرّض الإنسان للكثير من الفتن الفكرية والثقافية مما أكسبنا نوعاً من المناعة حيث أصبح معظم الناس أكثر انفتاحاً لسماع ورؤية الطرف الآخر من غير أن يعني ذلك موافقتهم على ما هم عليه. وكذلك الشيخ محيي الدين، لم يطلب من أحد أن يوافقه ويؤمن بكل ما يقوله أو يلزمه به، بل يتركه في مجال الاحتمال حتى يجد له، أو عليه، الدليل. فمتى وجد له دليلا سيجد أن عقله يقبله تلقاءً ويتّسع له صدره ويستريح له قلبه لأنه، كما يقول الشيخ في مقدمة الفتوحات المكية: "لا يثلج الصدر إلا ما يقطع بصحته". وفي كل الأحوال لا بدّ من الرجوع إلى أصول العقيدة المبنيّة على القرآن الكريم والسنّة الشريفة.

محتويات هذا الكتاب

يرى البعض أن الباحث أو الكاتب يجب أن يكون حيادياً تماماً في الموضوع الذي يناقشه، ولقد

---

[21] مع أن هذا الحديث المشهور بين أتباع المذاهب يبدو أنه لا أصل له عن المحدّثين، وليس له سند صحيح ولا ضعيف ولا موضوع (راجع سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف-الرياض، ١٩٩٢: ج١ ص ٧٦ رقم ٥٧)، ولكن معناه يبدو صحيحا إذا لم يؤدي الخلاف إلى منازعة.

[22] حديث متفق عليه، انظر في "صحيح مسلم": الجزء الأول، كتاب الإيمان، والجزء الثاني، تتمّة كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم: يا كافر، انظر كذلك في صحيح البخاري، الجزء الرابع، كتاب الأدب، الحديث رقم: ٥٧٥٢، وكذلك: ٥٧٥٣.

حاولت أن أكون كذلك في أغلب الأحيان، ولكنني لا أستطيع أن أخفي انحيازي التام للشيخ محيي الدين ابن العربي رضي الله عنه وإيماني بكلّ ما يقوله والذي لا يخالف صريح العقيدة الإسلامية المعتمدة على القرآن الكريم والسنّة الشريفة. وكذلك لا أخفي انحيازي التام في تأويل أقواله وتصرّفاته والأحداث التي مرّ بها لصالحه وذلك من باب حسن الظنّ أوّلاً ثم من باب الإيمان والاعتقاد بنزاهته عن كلّ ما يمكن أن يمسّ الأخلاق أو العقيدة الإسلامية، رغم أنني لا أسلّم بعصمة أحدٍ غير الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ومن هذا المنطلق فإنّ هذا الكتاب يدمج بين الدراسة الأكاديمية والنقدية وبين المواقف الدفاعية عن كلّ ما اتُّهم به ابن العربي، رغم أنني حاولت في الفصل الأخير أن أناقش جميع وجهات النظر المختلفة بحياد تام وخاصة تلك التي تنتقد الشيخ الأكبر، بل وجدت توافقاً خفياً بين ابن العربي وخصومه الذين لم يفهموه.

ومن جهة أخرى فمن المعروف أن التصوّف يعتمد بشكل أساسي على علم الكشف، وهو علم ذوقي لدنّي لا يدخل دائماً تحت مظلّة العقل والمنطق والبراهين، وبالتالي لا يمكن الدفاع عنه وحمل القرّاء والمستمعين على التصديق به. ولذلك لم أحاول كثيراً إقناع القارئ بالأدلّة والبراهين على كلّ ما أقوله أو أنقله عن الشيخ محيي الدين من الأمور الغريبة كلقائه بالخضر عليه السلام ورؤيته للأرواح. وكلّ ما أرجوه من القارئ الكريم الإنصاف والتمهّل قبل الإنكار؛ فليس كلّ غريب مستحيل إلاّ إذا وجدنا على عكسه الدليل، وليس بالعكس! فممّا يُؤسف له أنّ أغلب الناس وكثيراً من العلماء والمثقفين اعتادوا على رفض كلّ ما لم نقدّم لهم عليه برهاناً، وكأننا قد أحطنا بجميع العلوم وأن كلّ ما وراء معرفتنا جهل وظنون. فليس الأمر كذلك وهذا المبدأ خاطئ بل يجب على الإنسان المنصف أن يترك كلّ ما هو غريب من العلم في مجال الاحتمال حتى يجد له أو عليه دليلاً. فمتى وجد له دليلاً يقبله ومتى وجد عليه دليلاً يرفضه بحذرٍ شديدٍ. وفي كلّ الأحوال هناك أنواع من العلم الضروري الذي لا يوجد له ولا عليه دليل، وخاصة علوم الذوق والمشاهدة التي تحصل في القلب ولا يمكن للإنسان رفضها لعلمه اليقيني بصحّتها حتى وإن لم يملك عليها دليلاً.

وبما أن المصادر التاريخية عن ترجمة ابن العربي قليلة جداً وجميعها تعتمد على ما ذكره الشيخ نفسه في كتبه المتفرّقة، فقد اعتمدتُ في هذا الكتاب على سياسة النقل والإكثار من الروايات حتى أترك ابن العربي يتكلّم بنفسه ولم أتدخّل بالشروح إلاّ وقت الضرورة، فلم يكن عملي في هذا الكتاب أكثر من جمع النصوص ووضعها في سياقها التاريخي مع إضافة بعض التحليلات البسيطة حتى نملأ الفراغات التي لا نملك حولها معلومات كافية.

ولقد رأيت أن أقسم هذا الكتاب إلى سبعة فصول يختص كلٌّ منها بحقبة من حياة الشيخ الأكبر وسميّتها بأسماء بعض أوقات مواضع الشمس في السماء بسبب التشابه الذي ذكرناه في بداية هذه المقدمة.

فالفصل الأول هو وقت الفجر ونتكلم فيه عن المرحلة التي سبقت ولادته وعن أصل قبيلته وأجداده وانتقالهم من اليمن إلى الأندلس مع الفتوحات الإسلامية، ثم نتطرق باختصار لتاريخ الأندلس مع بعض التركيز على الفترة التي سبقت ولادة الشيخ الأكبر حيث ننهي الفصل بخلاصة عن الوضع السياسي والاجتماعي في ذلك الوقت.

أما الفصل الثاني فهو الصبح ونتكلم فيه عن بزوغ شمس محيي الدين سنة ٥٦٠/١١٦٥ وحياته في طفولته وشبابه وتعليمه وتربيته على أيدي شيوخ الأندلس في ذلك العصر، ثم تنقّله في بعض نواحي الأندلس وبداية شهرته حتى سنة ٥٨٩/١١٩٢.

والفصل الثالث أعطيناه اسم الضُحَى ونغطّي فيه المرحلة ما بين ٥٨٩/١١٩٢ و٥٩٧/١٢٠٠ التي تنقّل فيها الشيخ رضي الله عنه عدة مرات ما بين مدن الأندلس والمغرب وتونس.

أما الفصل الرابع فهو وقت الظهر حيث تبلغ الشمس أقصى مداها في السماء، وهو وقت الزوال الذي يكون حينما يختفي ظل الجسم فيه عندما تكون الشمس قائمة عليه وقت الظهيرة، وهو رمز إلى الفناء في الله عمّا سواه، إن كان ثمّ. وفي هذه المرحلة، التي استمرت حتى سنة ٦٠٠/١٢٠٣، ارتحل الشيخ نحو المشرق إلى مكة المكرمة ليحج إلى بيت الله الحرام، بعد أن مرّ بمصر والقدس والمدينة المنوّرة.

وفي الفصل الخامس، وهو مرحلة العصر، كما في مرحلة الضحى، بدأ الشيخ رحلات متعددة بين مدن المشرق مكة والقدس وبغداد وحلب وقونية وسيواس والقاهرة، وكان يتردد كثيرا إلى مكة للحج والتدريس في الحرم إلى أن استقرّ في دمشق سنة ٦٢٠/١٢٢٣ وبقي بها حتى وفاته رحمه الله تعالى سنة ٦٣٨/١٢٠٤ وهي الفترة التي خصّصنا لها الفصل السادس الذي هو وقت الغروب.

أما في الفصل السابع والأخير فقد تكلمنا عن فترة ما بعد ابن العربي حيث بدأت كتبه تنتشر وذكره يعمّ الآفاق أكثر فأكثر وبدأ الناس يهتمون به وبعلومه وكذلك بدأ بعض الناس ينتقدونه ويكفّرونه ويؤلفون الكتب في سبّه وبيان فساد عقيدته ومذهبه كما عكف الكثير من مريديه على شرح كتبه ونشر علومه وتعاليمه ولا يزال هذا الصراع مستمرا إلى هذا الوقت. ومن أجل ذلك فقد سمّينا هذا الفصل بوقت العشاء، حين ينام أكثر البشر، وتلتبس الأمور على بعض ضعيفيّ النظر، ولا يفوز بالوصال إلا من سهر أو، إذا نام، استيقظ قبل السحَر.

ولقد كان من باب المصادفة العجيبة أن يكون تقسيم هذا الكتاب إلى سبعة فصول بهذا الشكل، فمع أنني لم أقصده منذ البداية ولكن استقرّ الأمر على هذا الترتيب الذي جاء طبيعيّاً ليستوعب المراحل المختلفة من حياة الشيخ الأكبر. ولكنني عندما أعدت النظر في هذا الترتيب وجدت معناه واضحا وصريحا وأنّه لم يكن مصادفة؛ فهو تعبير وانعكاس لأساس رؤية الشيخ الأكبر للعالم الذي خلقه الله تعالى على صورته الإلهيّة، فلمّا كان الله موصوفا بالسبعة الصفات (السمع، الحياة، العلم، القدرة، الإرادة، البصر، الكلام) التي هي أمّهات الصفات الإلهية الحسنى التي تلزم وتكفي ليكون الله إلها خالقا لهذا العالم، فلذلك خلق الله العالم على هذه الصورة في ستة أيام ثم استوى على العرش. ويوازي ذلك أيضاً خلقُ الجنين في بطن أمه في ستة أشهر وهي مدّة الحمل الحقيقي، وما فوقها فهو من الفصال لقوله تعالى في سورة لقمان: (وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ ...﴿١٤﴾) ثم قال في سورة الأحقاف: (وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ...﴿١٥﴾)، فالحمل ستة أشهر أي ستة أيام قمرية، فيوم القمر هو شهره، والفِصال أربعة وعشرون شهراً، منها في الرحم شهر واحد أو ثلاثة أشهر، والباقي على الثدي، ثم بعدها يخرج الجنين إلى الحياة مستقلاً بنفسه. كذلك العالم كله سبعة أيام، ستة للتكوين واليوم

السابع للعرض، وهو يوم القيامة، يوم الأبد، والله أعلم وهو علاّم الغيوب.

وهكذا فإن حياة الشيخ الأكبر رضي الله عنه، أو حياة علومه إن شئت، هي سبعة أيام ستة للتكوين والسابع للعرض ونحن فيه الآن. وليس هذا التشبيه مجازا أبدا، بل حقيقة تنطبق فصولها على أدقّ التفاصيل؛ قد فصّلها الشيخ محيي الدين في كتبه الكثيرة وأنا هنا أختصرها اختصارا شديدا. فاليوم الأول يكون عن صفة السمع وهو الوجود النسبي قبل الخلق، حيث يقول الله تعالى للشيء "كن" فيكون، فالعالم قبل خلقه له صفة السمع مع أنه غير موجود بعد، وبها يسمع أمر الله تعالى فيطيع، ثم يبدأ يكتسب الصفات الأخرى تباعا، فينفخ الله فيه الروح فيصير حيًا ثم يكتسب العلم ثم الإرادة ثم القدرة ثم البصر وفي النهاية الكلام، فيصبح هو بدوره يخلق بالكلام ولكن ليس خلقا ماديًا وإنما خلقا معنويا وهي الصور التي ينشؤها في نفس السامع حين يخاطبه.

وهكذا فإن حياة ابن العربي بدأت على الحقيقة قبل تاريخ ولادته بزمن طويل، بل منذ الأزل، حين كان ما يزال في عالم الذرّ، ولم يكن له وجود فعليّ، وإنما وجود معنوي، به استطاع أن يسمع أمر الله له بالتكوين فيطيعه، فلما خرج إلى الحياة تنقّل في خمسة أطوار، وهي خمسة حركات، أو أسفار: السفر الأوّل من الله إلى العالم، وهو وقت الصبح، وفيه تنشأ شخصيته، وهي مرحلة اللعب واللهو، ثم سفرٌ في العالم حتى يكتشفه ويصل منه إلى الله تعالى، وهذا السفر هو وقت الضحى، وهي مرحلة الزينة والتفاخر، ثم سفرٌ في الله تعالى بعد أن يفنى الإنسان عن العالم، وهو وقت الظهر أو الزوال، وهي مرحلة التكاثر، ثم يعود إلى العالم من جديد، ولكن بصورة مختلفة، بعد أن اكتمل علمه بالله من كون إله وليس من حيث ذاته سبحانه وتعالى أن يعلمه أحد سواه، وهذه هي مرحلة العصر التي يسافر فيها الإنسان "لينصح عباد الله" ويدعوهم إليه، وفيها يهيج النبات فتراه مصفرّاً، ثمّ، بعد أن يقضي ما قدّر الله له من الدعوة، يكون حطاما، ينتهي بالموت، لينتقل من جديد إلى الله تعالى ولا يبقى في الدنيا إلا أثره. فهذه هي خمسة أطوار، تضاف إلى الطور الأول الذي هو قبل التكوين، فتكون ستة أطوار أو أيّام يتم فيها الخلق، وتقوم في آخرها القيامة وهي يوم الأبد فتنتهي الدنيا وتبدأ الآخرة التي فيها عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان، فسابقوا إلى جنّة عرضها السماوات والأرض أعدّت للمتقين.[٢٢] وأما حياته الدنيا وما ملك فيها من أموال وأولاد وزينة؛ فكل ذلك زبَد، فيذهب جفاءً، وأما ما ينفع الناس، فيبقى إلى اليوم السابع، وهو وقت العشاء، وهو ما وصلنا من علوم الشيخ الأكبر، فذلك يمكث في الأرض. فهل سننتفع به، لنكون من المتقين!

---

[٢٢] راجع مثال هذا التقسيم في قوله تعالى في سورة الحديد:

(ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ۝ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝)

التسلسل التاريخي للأحداث

لقد حاولت جاهداً أن أرتّب فقرات هذا الكتاب حسب الترتيب التاريخي نفسه للأحداث في حياة الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي، ولكن ذلك لا يمكن أن يحصل بشكل دقيق أبداً نظراً لافتقارنا إلى المراجع الكافية واعتمادنا بشكل كامل تقريبا على التواريخ التي ذكرها الشيخ رضي الله عنه، وهو في كثير من الأحيان يذكر حوادث من غير تاريخ وأحيانا من غير تحديد المكان أو البلد. ومع ذلك فإن التواريخ التي ذكرها الشيخ الأكبر كافية لإعطاء تسلسل تاريخي دقيق للأحداث الرئيسية في حياته. فنحن لا نشك في تواريخ أسفاره الرئيسية وتنقلاته بين بلدان الأندلس والمغرب والمشرق (مصر ومكة والشام) وبلاد الروم، وعلى ذلك اعتمدنا في تقسيم هذا الكتاب إلى الفصول التي ذكرناها أعلاه. ولكن ترتيب الأحداث في كل منطقة من هذه المناطق التي أقام فيها الشيخ محيي الدين لا يمكن أن يبلغ الدرجة الكاملة من الدقة أبدا، ولذلك لا بدّ من التقريب، المعتمد على التخمين الذي قد يخطئ وقد يصيب.

من أجل ذلك ذكرنا أسماء المدن والتاريخ الذي تعود إليها كل فقرة من فقرات هذا الكتاب في عنوان الفقرة بين قوسين إذا كان ذلك معلوماً، وبدقة اليوم والليل والنهار أو الشهر، أو على الأقل السنة، إن كان ذلك ممكناً. وفي حال عدم التأكد من التاريخ وضعنا إشارة التقريب "~" قبل المكان أو الزمان الذي نذكره، وذلك فقط عندما توجد دلائل واضحة على ذلك. أما إذا لم يكن تحديد المكان والزمان ممكناً أبداً، فقد تركنا عنوان الفقرة من غير تحديد، ولكن وضعناها ضمن تسلسلها الطبيعي بين الفقرات الأخرى، على أحسن تخمين. أما إذا لم نكن متأكدين مطلقاً من مكان وتاريخ الحادثة، فسوف ننوّه إلى ذلك أثناء ذكرها، ولا يمكن أبداً أن ندّعي أننا بلغنا الكمال في ذلك، فالخطأ وارد.

ولقد حاولت أن أضع التاريخ الميلادي إلى جانب التاريخ الهجري الذي هو الأصل، ففعلت ذلك في أغلب الأحيان، إلا عندما لا يكون هناك داعٍ لذلك، حيث نذكر التاريخ الهجري فقط من غير إشارة (هـ) إلا إذا لزم الأمر وكان هناك احتمال لبعض الإشكال. وفي بعض المواضع وضعنا فقط التاريخ الميلادي وخاصة للأحداث التي كانت قبل الهجرة أو قبل الإسلام، وفي هذه الحالة نشير إليها بالحرف (م) إلا إذا كان الأمر بيّن من غير ذلك. ولكن لا بدّ من الإشارة إلى أن التحويل من السنة الهجرية إلى السنة الميلادية قد يتضمّن خطأً قد يزيد عن مقدار عام، وذلك عندما لا نعرف عن أي جزء من السنة نتكلم، ولكن مرجعنا دائما في هذا الكتاب إلى التأريخ الهجري وليس الميلادي، وإنما وضعنا التاريخ الميلادي للتقريب.

المراجع والمصادر

بالإضافة إلى كتب التاريخ المختلفة وكتب الرجال والوفيات، فإن اعتمادنا في هذا الكتاب كان بشكل أساسي على الدرر التي التقطناها من بحر "الفتوحات المكيّة"، الذي ذكر فيه الشيخ الأكبر الكثير من الحوادث التي مرّ بها في أسفاره المختلفة. بعد ذلك فإن رسالة "روح القدس في مناصحة النفس" تُعتبر مرجعاً أساسياً لكلّ من يريد دراسة حياة الشيخ الأكبر لأنه ذكر فيها العديد من شيوخه الذين تعامل معهم والذين

كثيرا ما لا نجد تعريفهم في الكتب الأخرى. يضاف إلى ذلك رسالة "الدرّة الفاخرة في ذكر من انتفعت بهم في طريق الآخرة" وهي رسالة طويلة لم تنشر بعدُ باللغة العربية مع أنه قد تمّ ترجمة أجزاء منها إلى اللغة الإنكليزية والإسبانية. ولكنني اعتمدت على بعض المخطوطات التي قام بإرسالها لي الدكتور ستيفين هرتنشتاين مشكورا. وكذلك فقد استفدنا بشكل كبير من رسائل ابن العربي الأخرى التي ذكر فيها بعض شيوخه مثل الإجازة التي كتبها للملك الأشرف الأيوبي. بالإضافة إلى ذلك فقد استخلصنا الكثير من التواريخ من مقدمات كتب الشيخ محيي الدين أو من داخل النصوص حيث يتكلم عن سبب تأليفه لهذه الكتب وتاريخه بالإضافة إلى ذكر حوادث أخرى مختلفة.

ولم نقم بكل هذا العمل من الصفر بل استفدنا كثيراً من الكتب الجيدة الأخرى للباحثين الذين سبقونا في هذا المجال واعتمدنا عليهم كثيراً في تجميع هذا الكتاب حيث قدّموا لنا عرضاً مفصلاً لحياة الشيخ الأكبر من خلال كتبه الكثيرة المطبوعة والمخطوطة والتي لم يمكن لنا الوصول إليها لولا أبحاثهم المهمة في تصنيفها ودراستها واستخلاص النتائج منها. فرغم أننا اعتمدنا بشكل أساسي على مؤلفات الشيخ محيي الدين ابن العربي نفسه، إلا أنه لا بدّ من ذكر بعض المراجع المهمة التي سهّلت علينا طريق البحث كثيراً.

فنذكر في هذا الخصوص أولا الباحث الإسباني أسين بلاثيوس وهو الذي قدّم كتاباً يعدّ من أول وأهم الدراسات حول حياة الشيخ الأكبر رغم ما فيه من الأخطاء والمغالطات. وقد قام عبد الرحمن بدوي بترجمة هذا الكتاب من الإسبانية إلى العربية وهو بعنوان: "ابن العربي، حياته ومذهبه" وطبع سنة ١٩٧٩ من قبل وكالة المطبوعات في الكويت وبيروت. ومن الأعمال المهمة والتي لا يمكن لأي باحث الاستغناء عنها ما قدمه الدكتور عثمان يحيى في كتابه (*Histoire et Classification de l'oeuvre d'Ibn 'Arabî*) والذي ترجمه الدكتور أحمد الطيبي إلى العربية ونُشر باسم "مؤلفات ابن العربي، تاريخها وتصنيفها"، ونشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب في القاهرة سنة ٢٠٠١. وفي هذا الكتاب قام الدكتور عثمان رحمه الله مشكوراً بتقديم جدول بتواريخ وجود الشيخ الأكبر في المدن والبلدان المختلفة التي مرّ بها وذكرها في كتبه المختلفة أو ذكرها بعض تلاميذه في سماعاتهم على الكتب التي نقلوها عنه. ولكن هذا الجدول فيه أخطاء كثيرة أيضاً.

وكذلك اعتمدنا بشكل كبير على الكتاب المهم الذي قدمته كلوديا عداس باللغة الفرنسية أيضاً وترجم إلى اللغة الإنكليزية وهو كتاب "البحث عن الكبريت الأحمر" [Claude Addas, *Ibn 'Arabi ou La quête du Soufre Rouge* (Paris: Gallimard, 1985); trans. P. Kingsley, *Quest for Red Sulphur: The Life of Ibn 'Arabi* (Cambridge: Islamic Texts Society, 1993)]. وقامت كلوديا مشكورة بتحليل ودراسة حياة الشيخ وعلاقته بالشيوخ الذين التقى بهم في رحلاته المختلفة، ثم ذكرت في آخر كتابها نفس الجدول الذي وضعه الدكتور عثمان يحيى وأضافت عليه بعض التفاصيل وخاصة فيما يخص السنوات العشرين الأخيرة حين وجود الشيخ الأكبر في دمشق. وسنذكر نحن هذا الجدول في ملحق آخرَ هذا الكتاب إن شاء الله تعالى مع بعض الإضافات المهمة للأحداث التي ذكرناها داخل الكتاب.

وأخيراً لا بد من ذكر كتاب ستيفين هرتنشتاين: "الرحمن المطلق، الحياة الروحية والفكرية لابن العربي" والذي طُبع في أكسفورد سنة ١٩٩٩، وقد قدّم فيه الدكتور ستيفين تحليلا جميلا لحياة الشيخ الأكبر

الروحية وقدّمها بطريقة سهلة ومشوقة [Stephen Hirtenstein, *The Unlimited Mercifier, The Spiritual Life and Thought of Ibn 'Arabi* (Oxford: Anqa, 1999)].

وبالإضافة إلى هذه الكتب، فهناك بعض الكتب الأخرى التي استفدنا منها نذكر منها كتب الدكتورة سعاد الحكيم الكثيرة أمثال المعجم الصوفي (دار دندرة، بيروت، ١٩٨١) وتحقيقها لكتاب الإسراء (دار دندرة، بيروت، ١٩٨٨) وكتب أخرى.

ومن جهة أخرى لا بد من الإشارة أيضاً إلى بعض الكتب الرديئة التي تعرّضت لحياة الشيخ محيي الدين نذكر منها كتاب "هكذا تكلّم ابن عربي" للأستاذ نصر حامد أبو زيد (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢)؛ فرغم أن الأستاذ نصر مشهود له في هذا المجال إلا أنّ كتابه هذا جاء مليئا بالأخطاء التي لا يمكن أن تكون أخطاءً "مطبعية" فقط. فهو أحيانا يذكر تواريخ تأليف الشيخ محيي الدين لبعض كتبه بشكل خاطئ تماما؛ مثل كتاب روح القدس الذي قال عنه، في الصفحة ١٣٠، إن الشيخ ألّفه سنة ١١٩٨/٥٩٠ في تونس! فالتاريخ الميلادي هنا لا يوافق التاريخ الهجري وكلاهما خطأ، والمكان أيضاً خطأ. فكل مهتم بتاريخ الشيخ محيي الدين يعلم أن هذا الكتاب كتبه الشيخ رضي الله عنه من مكة المكرمة سنة ١٢٠٣/٦٠٠–١٢٠٤ إلى صاحبه عبد العزيز المهدوي الذي كان عنده في تونس سنة ٥٩٠ وسنة ٥٩٨. ثم يعود الأستاذ نصر بعد ذلك بأربعة صفحات فيقول، في الصفحة ١٣٤، أن الشيخ محيي الدين قد ألف هذا الكتاب من مكة سنة ٥٩٩! وأحيانا يقول إن الشيخ زار تونس سنة ١١٩٣/٥٨٧ لأول مرة، وفي فاس ١١٩٥/٥٨٩ (صفحة ٣٩)! ثم يقول في الفقرة التي تليها "في سنة ١١٧٥/٥٩٠ نجد الشيخ في تونس". فهذا كله خلط وكأنّ الأرقام لا تعني له شيئا، فضلا عن تفكك أكثر العبارات من الناحية اللغوية، وتكاد لا تخلو صفحة من خطأ تأريخي أو موضوعي. على كل حال ربما سنذكر بعضا من ذلك في مناسبته، ليس بهدف التجريح بالأستاذ نصر ولكن بهدف التوضيح للقرّاء الذين وثقوا بقلمه.

ومن الكتب الأخرى الرديئة التي نجدها حول موضوع حياة الشيخ محيي الدين رضي الله عنه، كتاب "محيي الدين ابن عربي، حياته–مذهبه–زهده"، تأليف الأستاذ الدكتور فاروق عبد المعطي وكيل كليّة الآداب–جامعة المنصورة، [كما ورد على الغلاف]، طبع في سلسلة "الأعلام من الفلسفة" من قبل دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣. وهذا العنوان يذكّرنا بكتاب أسين بلاثيوس الذي ذكرناه أعلاه والذي ترجمه الدكتور عبد الرحمن بدوي من الإسبانية إلى اللغة العربية، ونشره في الكويت وبيروت سنة ١٩٧٩، ولكن قام "الأستاذ الدكتور فاروق" بإضافة كلمة "زهده" إلى العنوان، وهي إضافة غير موفقة أبداً،[٢٤] وفيما عدا ذلك فهو

---

[٢٤] لم يكن الشيخ محيي الدين رضي الله عنه زاهدا بمعنى ترك الدنيا ولبس الصوف والتقشف إلى ما هنالك مما هو معروف عن عامة الزهّاد، إنما زهده كان بمعنى ترك حب الدنيا والزهد في كل ما سوى الله تعالى. فيقول رضي الله عنه: "فالزهد من القائل به جهل في عين الحقيقة" (الفتوحات المكية: ج٢ص١٧٨)، وأيضاً: "الزهد في الأشياء لا يقع إلا من الجهل القائم بهذا الزاهد" (ج٣ص٢٦٣)، و"ليس الزهد إلاّ في الفضول وأمّا ما تدعو الحاجة إليه فذلك المعوّل عليه لا يصح عنه تجريد" (ج٤ص٣٤٣). فكان ابن العربي يلبس أحسن الثياب (روح القدس: ص٧٢) ويأكل أطيب الطعام. ولكنه كان جواداً ولا يختزن شيئاً ويعطي ما يملك عن طيب نفس كما أعطى الدار التي أعطاه إياها ملك الروم لسائل سأله من فضل الله (نفح الطيب: ج٢ص١٦٤)، وكانت الدار تساوي مائة ألف درهم.

نسخة طبق الأصل من ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي حرفا بحرف، قام فاروق عبد المعطي بسَرِقَتِها ونسبها إلى نفسه؛ حتى إنه حافظ "بأمانة بالغة" على ترتيب الفقرات وتشكيل الحروف والتعليقات، ولولا أن شكل الحرف مختلف لقلنا أنه نسخها بالتصوير الضوئي، ولكنه قام أيضاً بحذف مقدمة المؤلف الحقيقي ومقدمة المترجم ووضع بدلا عنها مقدمة جميلة من عنده، ربما سرقها من مكان آخر.

وهناك كُتب أخرى (جيدة) باللغة العربية والفارسية والتركية والإنكليزية والفرنسية وسوف نذكر بعضها في حينه داخل هذا الكتاب، وأيضاً في سرد المراجع في آخر الكتاب إن شاء الله.

فهذه هي شمس مقدمة هذا الكتاب "شمس المغرب" قد غربت لتشرق من جديد وبشكل متجدد في فصوله بحمد الله وفضله، ونرجو من الله تعالى أن يجعله نورا وشمس هداية للمسلمين أجمعين. ونسأل الله تعالى في البداية التوفيق والإخلاص والهداية، ثم الثبات حتى النجاة في النهاية، والله من وراء القصد، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

والحمد لله

د. محمد علي حاج يوسف

جامعة الإمارات العربية المتحدة-مدينة العين

في يوم الخميس، الأول من ربيع الأول ١٤٢٧ الموافق ٣٠ آذار ٢٠٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

الفجر

أحداثه وانتقالهم من اليمن إلى الأندلس وخلاصة الوضع السياسي والاجتماعي فيها

قبل ولادته سنة ٥٦٠/١١٦٥

أنـــا المحيـــي لا أكـــني ولا أتبلّـــدُ[٢٥] ... أنـــا العربـــيُّ الحـــاتميُّ محمّـــدُ

لكـــلّ زمـــانٍ واحـــدٌ هـــم عينـــهُ ... وإنـــي ذاك الـــشخص في العـــصر أوحـــدُ

ومـــا النـــاس إلا واحـــدٌ بعـــد واحـــدٍ ... حـــرامٌ علـــى الأدوار شخـــصانِ يوجـــدُ

أقابـــلُ عـــضّات الزمـــانِ بهمّـــةٍ ... تـــذلّ لهـــا الـــسبع الـــشداد وتخمـــدُ

مؤيّـــدنا فيـــه علـــى كـــلّ حالـــةٍ ... إلـــه الـــسما وهـــو النـــصير المؤيّـــدُ

ومـــا ذاك عـــن حـــقٍّ ولكـــن عنايـــةٌ ... أتـــتني وحـــادي تـــروم وتجهـــدُ[٢٦]

الخلاصة

يرجع الشيخ الأكبر محمّد ابن العربي في نسبه إلى قبيلة طيء الشهيرة، والتي زاد من شهرتها ما عُرف عن حاتم الطائي من الكرم والجود والسخاء وحسن الخلق. تعود جذور هذه القبيلة إلى اليمن وكانت تتبنّى الديانة المسيحيّة والوثنيّة ولكنهم كانوا من أوائل الذين دخلوا في الإسلام؛ فكانوا من جنوده الذين ساهموا بشكل فعّال في نشره سواء في الحرب أو في السلم عن طريق نشر العلم والأدب والمعرفة التي برعوا فيها. فمع امتداد الفتوحات الإسلامية في شتى أنحاء الأرض انتشرت قبيلة طيء بفروعها الكثيرة وكان منهم

---

[٢٥] التبلّد أصله من الالتزام بالمكان ومنه البَلَد والبُلْدة وكذلك البَلادة. انظر القاموس المحيط للفيروزآبادي، باب الدال فصل الباء.

[٢٦] الديوان: ص٤٦. انظر آخر هذا الفصل لشرح هذه القصيدة.

آل العربي الذين استقرّوا في الأندلس مع بداية الفتوحات الإسلامية ومنهم كانت عائلة الشيخ الأكبر.

في المرحلة التي سبقت ولادة الشيخ محيي الدين وخلال حياته في الأندلس توالى على هذه البلاد، ذات الطبيعة الخلابة والثروات الغنيّة، عدة مراحل من الحكم مثل دولة المرابطين ودولة الموحدين. وشهدت هذه المراحل حروباً كثيرةً سواء بين المسلمين والإسبان أو بين طوائف المسلمين المختلفة من عرب وبربر. وتميّزت المرحلة التي سبقت ولادة الشيخ بأنها شهدت نهاية دولة المرابطين خاصة مع وفاة ابن مردنيش صاحب مُرسية وتسليم أولاده السلطة للموحّدين ومن ثمّ انتقال عائلة ابن العربي من مرسية إلى إشبيلية عاصمة دولة الموحدين في الأندلس الذين دامت دولتهم فترةً ليست بالقصيرة وامتدت طوال حياة الشيخ ابن العربي في الأندلس ثم بدأت بالانهيار مع انتقاله بشكل نهائيّ نحو المشرق، ثمّ انهارت كليّاً بعد وفاته بقليل. وخلال هذه الفترة توالى عددٌ من ملوك الموحدين على حكم الأندلس والمغرب العربي وكلهم من أبناء عبد المؤمن بن علي القيسي الذي تولّى حكم الموحدين بعد ابن تومرت الذي كان له الفضل في تأسيس هذه الدولة التي استمرّت حوالي قرن من الزمن حفظت خلاله الأندلس من السقوط بأيدي النصارى.

أصول قبيلة طيء

كانت قبيلة طيءٍ من بني سبأ تنزل بأرض اليمن ثم انتقلت شمالاً إثر سيل العَرِم، الذي دمّر سدّ مأرب، فارتحلوا إلى الحجاز واستقرّوا بالجبلين "أجأ" و"سلمى" بين القرن الثالث والثاني قبل الميلاد، وهي أرض واسعة كثيرة المياه والشجر والنخيل والريف.

وطَيِّءٌ هو جُلهُمة بن أدَدِ بن زيدِ بن كَهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، وإنما سمّي طيئاً لكثرة طيّه المنازل والرحيل حتى أوغل بأرض الحجاز واستقر في أجأ وسلمى.[٢٢]

وقد عاش طيء بن أدد وعَمّر إلى أن بلغ ولدُهُ وولَدُ ولدِه أكثر من خمسمائة رجل. وَلَدَ طيءٌ بن أددٍ رجلين: الغوث بن طيء، وقُطْرة بن طيء، فولدَ الغوث عَمْراً ولؤياً، وولد عمرو بن الغوث أسودان- واسمه نَبْهان- وثعل وجَرْم وبَوْلان وحبة. فهؤلاء بنو عمرو بن الغوث بن طيء، والعدد فيهم. ومنهم تفرّقت أكثر قبائل طيء. فمن بني نَبْهان: نابل بن نَبْهان، ومن نابل: زيد الخيل بن مهلهل الطائي. وزيد الخيل هذا هو فارس العرب كافّة، وكان يكنّى أبا مِكْنَف، وهو سيّد قومه، أسلم حين وفد على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سنة الوفود، وسمّاه زيد الخير.

دخولهم الإسلام

كانت قبيلة طيء كحال سائر قبائل العرب قبل الإسلام لها ديانتها الوثنية وكذلك النصرانية ولكنها

---

[٢٢] معجم البلدان، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية-بيروت، ١٩٩٠: رقم ٢١٨.

لم تتأثر بالديانة اليهودية. وكانت طيء من أول القبائل العربية التي أرسلت رجالها وفوداً على الرسول صلّى الله عليه وسلّم فأسلموا وحسُن إسلامهم في سنة تسعٍ للهجرة، وهي سنة الوفود.

وفد "زيد الخيل" على النبي صلّى الله عليه وسلّم في وفد طيء وأسلم على يديه، وهو أحد من أكرمهم رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم، وبسط له رِداءه، وسماه "زيد الخير"، وعلّمه ودَعَا له. وقال النبي صلّى الله عليه وسلّم في حقّه: "ما ذُكر لي أحدٌ فرأيته إلا كان دوْنَ ما وُصِفَ لي، إلا زيداً".[28] ونسبه هو: زيد الخير بن مُهلهِلِ بن زيدِ بن منهبِ بن عبد رضيّ ابن المختلس بن ثوب بن كنانة بن مالك بن نابل بن نُبْهان بن عمرو بن الغوث بن طيء.

حاتم الطائي

أما حاتم الطائي المشهور بالسخاء والكرم، فهو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج بن امرئ القيس بن عدي بن قطن بن أخزم بن ربيعة بن جرول بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيء. كان قَدْرُه في قومه أنهم وضعوا عنه المغازي، وضربوا له بالسهام، وكان يَنحر كل يوم جزورا وكان له قِدْرٌ لُحاس على الأثافي لا تُزال أبداً. أدرك حاتم الإسلام إلا أنه لم يسلم، ومات نصرانياً. ويفتخر الشيخ محيي الدين بحاتم الطائي وبكرمه ويدعوه "جدّي".[29]

الصحابي الجليل عديّ بن حاتم

وكذلك يفتخر الشيخ محيي الدين رضي الله عنه بالصحابيّ الجليل عديّ بن حاتم ويدعوه "جدّي" أيضاً.[30] وعدي بن حاتم هو الصحابيّ الجليل أبو طريف عُديّ بن حاتم الطائي وكان نصرانياً وكان ملكاً من ملوك العرب يأخذ الربع من غنائم قومه كما كان يفعل غيره من الملوك. هرب إلى الشام فراراً من جيوش المسلمين وترك أخته سفّانة في نجد بعد أن أسرها المسلمون، فكانت السبب في إسلامه، كما يروي ذلك عديّ رضي الله عنه. أسلم سنة تسع للهجرة وشهد فتح العراق ثم سكن الكوفة. كان خطيباً حاضر البديهة وكان رئيس طيء في الجاهلية والإسلام، قام في حروب الردة بأعمال كبيرة وشهد حرب الجمل وصفّين والنهروان مع عليّ بن أبي طالب. توفي في الكوفة سنة ٦٨/٦٨٧.[31]

وكان لعديّ ولدان توفي كلاهما معه في معارك المسلمين مع الخوارج، فانقطع عقب حاتم من جهة ابنه عديّ، فأما بقية قبيلة حاتم الطائي، الذين منهم ابن العربي، فهي من جهة ابنه عبد الله بن حاتم

---

[28] أسد الغابة في معرفة الصحابة، عز الدين بن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري، تحقيق وتعليق محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور ومحمود عبد الوهاب فايد، دار الشعب-القاهرة، ١٩٧٠: ج٤ص٧.

[29] انظر مثلا كتاب محاضرة الأبرار: ج١ص٤٤١.

[30] محاضرة الأبرار: ج٢ص٢٢٤.

[31] ابن الأثير، "أسد الغابة في معرفة الصحابة": ج٤ص٧-١٠.

فقط،[٢٢] وكانوا ينزلون بنهر كربلاء.

بعض مشاهير الطائيين

ويصعب تتبع النسب بعد عبد الله بن حاتم الطائي نظراً لتفرق الناس وخروجهم في الغزوات والفتوحات الإسلامية خارج جزيرة العرب إلى شتى أنحاء العالم، بما في ذلك المغرب العربي ثم الأندلس. ولكن العديد من بني عبد الله الحاتمي وأبناء عمومته كان لهم شأن كبير في تاريخ الإسلام، سواء في الفتوحات العسكرية أو في مجال العلوم والمعارف الإسلامية. ومن الواضح أن الكثير من بني حاتم لهم توجّه روحاني صوفي مثل ابن العربي.

* فمنهم: داود بن نُصير الطائي المكنى أبا سليمان الكوفي، اشتغل بالعلم مدة ودرس الفقه وغيره من العلوم، ثم اختار بعد ذلك العزلة وآثر الانفراد والخلوة، ولزم العبادة واجتهد فيها إلى آخر عمره. قيل أنه ورث من أمه داراً فكان ينتقل في بيوت الدار كلما خرب بيت من الدار انتقل منه إلى آخر ولم يعمّره، حتى أتى الخراب على عامّة بيوت الدار. وورث من أبيه دنانيرَ وكان ينفق منها حتى كُفّن بآخرها. وصام أربعين سنة ما علم به أهله؛ كان يحمل غداءه معه ويتصدق به في الطريق ويرجع إلى أهله يفطر عشاءً لا يعلمون أنه صائم. وكان محارب بن دثار يقول: لو كان داود الطائي في الأمم الماضية لقصّ الله علينا من خبره! مات داود بالكوفة سنة ستين ومائة، وقيل: سنة خمس وستين ومائة.[٢٣]

ويبدو أن هناك علاقة وطيدة بين داود الطائي والشيخ أبي مدين الذي تأثر به الشيخ محيي الدين كثيرا كما سنرى في الفصل الثالث. فقد سرده المقرّي مؤلف كتاب "نفح الطيب" في سلسلة شيوخه الذين أخذ عنهم في سلسلة ترجع عن طريق الحسن البصري وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ومن ضمنهم أبو مدين وداود الطائي.[٢٤] بالإضافة إلى ذلك فإن الشيخ أبا مدين قد لبس الخرقة الصوفية من شيخه أبي يعزى من سلسلة رجال فيهم داود الطائي.[٢٥]

* ومن الطائيين أيضاً الشاعر المشهور أبو تمام وهو حبيب بن أوس بن الحارس الطائي، وهو شامي الأصل، كان بمصر في حداثته يسقي الماء في المسجد الجامع، ثم جالس الأدباء، فأخذ عنهم وتعلم منهم، وكان فطِناً فهِماً. بلغ المعتصم خبره فدعاه إليه، فقال به أبو تمام قصائد عديدة، وأجازه المعتصم، وقدمه على شعراء وقته، وقدِم بغداد وجالس الأدباء وعاشر العلماء، وكان موصوفاً بالظرف وحسن الأخلاق وكرم النفس،

---

[٢٢] جمهرة أنساب العرب، أبي محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي، تحقيق و تعليق عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية- بيروت، ١٩٨٣، ص٤٠٢.

[٢٣] الأنساب، الإمام أبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني، تقديم و تعليق عبد الله عمر البارودي، دار الجنان- بيروت، ١٩٨٨: ج٤ص٣٦.

[٢٤] نفح الطيب: ج٥ص٢٤١، وكذلك: ج٥ص٢٦٨.

[٢٥] انظر كتاب: تجريد التحقيق حول الفقيه المقدم وسند الخرقة والطريق، تأليف السيد حسن بن أحمد بن محمد العيدروس باعلوي، حضرموت، كتاب، غير مطبوع، منشور على الانترنت (www.shiabdarm.net/books/el_faqih/fehrest.htm)، ص١٠.

وفي آخر عمره ولاه الحسن بن وهب بريد الموصل، وكانت له به عناية، فأقام بها أقل من سنتين، ومات بها في جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثين ومائتين، ودفن بها، وكانت ولادته سنة تسعين ومائة.[٣٦] ويقول الشيخ محيي الدين في "محاضرة الأبرار" أن شيخه أبا بكر بن خلف بن صاف الكومي، وهو الذي درس عليه القرآن كما سنرى في الفصل القادم، كان ينشده من شعر أبي تمام الطائي البيتين الشهيرين:

نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحبّ إلا للحبيب الأول

كم منزلٍ في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبداً لأول منزل

* وأما نوح بن دراج الطائي، فكان قاضياً بالكوفة، يروي عن العراقيين، وروى عنه عليّ بن حُجر، مات سنة اثنتين وثمانين ومائة، وكان أعمى.

* وأبو عبد الرحمن الهيثم بن عدي بن عبد الرحمن الطائي، أبوه من أهل واسط، ولد بالكوفة وبها نشأ، ثم انتقل إلى بغداد وسكنها، ومات بها. قال أبو حاتم بن حبان البستي: الهيثم بن عدي كان من علماء الناس بالسير وأيام الناس وأخبار العرب.[٣٧]

* وأبو سليمان داود بن المحبر بن قحذم بن سليمان بن ذكوان الطائي، من أهل البصرة، وهو مصنف "كتاب العقل". حدث عن شعبة، وحماد بن سلمة، وهمام بن يحيى وعباد بن كثير وصالح المري والهيثم بن حماد، وعبد الواحد بن زياد، وغياث بن إبراهيم، وإسماعيل بن عياش، وهياج بن بسطام وطبقتهم. روى عنه محمد بن الحسين البرجلاني، ومحمد بن إسحاق الصغاني، ومحمد بن عُبَيْد الله بن المنادى، والحسن بن مكرم البزاز، وأبو محمد الحارث بن أبي أسامة التميمي وغيرهم. واختلف الناس فيه فمن موثق ومن مكذب. مات داود بن المحبر ببغداد يوم الجمعة لثمان مضين من جمادى الأولى سنة ست ومائتين.[٣٨]

* وأبو القاسم عبد الله بن أحمد بن عامر بن سليمان بن صالح الطائي، من أهل بغداد، روى عن أبيه عن عليّ بن موسى الرضا عن آبائه عليهم السلام. حدث عنه أبو بكر محمد بن عمر الجعابي، وأبو بكر أحمد بن إبراهيم بن شاذان، وأبو حفص عمر بن أحمد بن شاهين، وإسماعيل بن محمد بن زنجي، وأبو الحسن بن الجندي وغيرهم، وكان أمياً. توفي في شهر ربيع الآخر سنة أربع وعشرين وثلاثمائة.[٣٩]

* وأبو الحسن عليّ بن حرب بن محمد بن عليّ بن حبان بن مازن بن الغضوبة الطائي الموصلي. ذكر أن مازن بن الغضوبة وفد على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، مع وفد طيء. وأما عليّ بن حرب فإنه كان أحد من رحل في الحديث إلى الحجاز وبغداد والكوفة والبصرة، ولد بأذربيجان في شعبان سنة خمس وسبعون ومائة، ومات بالموصل في شوال سنة خمس وستين ومائتين.

---

[٣٦] السمعاني، "الأنساب": ج٤ص٣٧.

[٣٧] السمعاني، "الأنساب": ج٤ص٣٧.

[٣٨] السمعاني، "الأنساب": ج٤ص٣٨.

[٣٩] السمعاني، "الأنساب": ج٤ص٣٨.

* وأبو صالح يحيى بن واقد الطائي، ولد في خلافة المهدي سنة خمس وستين، وكان عارفاً بالنحو واللغة العربية.

* وأبو الحسن رافع بن عميرة الطائي، وهو رافع بن أبي رافع الذي غزا مع أبي بكر الصديق، وهو الذي قطع ما بين الكوفة ودمشق في خمس ليالٍ.[٤٠]

الفتوحات الإسلامية والرحلة نحو المغرب

مع بداية الفتوحات وتوسع رقعة الدولة الإسلامية، بدأ المسلمون ينتشرون في بقاع الأرض شمالاً ثم شرقاً وغرباً. فبعد أن أخمد أبو بكر الصديق رضي الله عنه عصيان مانعيّ الزكاة وقاتل المرتدّين وعمّ الإسلامُ أرجاء الجزيرة، وجّه القوى الإسلامية إلى الجهاد في جبهتين: جبهة العراق بقيادة خالد بن الوليد وجبهة الشام بقيادة أبي عبيدة ابن الجراح. وفي العراق تمّ فتح القسم الجنوبي منه، ثم أمر أبو بكر خالد بن الوليد أن يتوجه إلى الشام مع قسم من جيش العراق مدداً لأبي عبيدة ابن الجراح، وتم فتح الشام بعد موقعة اليرموك سنة ٦٣٤/١٣ قُبيل وفاة أبي بكر رضي الله عنه.

ثم استمرت الفتوحات في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٦٣٤/١٣-٦٤٤/٢٣) حيث غزى معاوية الروم حتى بلغ عمورية، وكذلك فُتحت أرمينية وأذربيجان، وفُتحت مصر على يد عمرو بن العاص وامتد الفتح على الأقاليم الساحلية الليبية طرابلس وبرقة. وفي الشرق اجتاز المسلمون حدود بلاد إيران ففتحوا خراسان والأهواز وإقليم فارس وامتد الفتح جنوباً حتى مكران إلى حدود السند وشرقا إلى أفغانستان.

وفي خلافة عثمان رضي الله عنه (٦٤٤/٢٣-٦٥٦/٣٥) بسطت الدولة الإسلامية سيطرتها على هذه المناطق الواسعة وزادت اتساعا. وامتد الفتح الإسلامي نحو أفريقية بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي ولاه عثمان بعد أن عزل عمرو بن العاص، وانتصر المسلمون على جيش الروم، وتم الاستيلاء على سبيطلة التي اتخذوها عاصمة لهم.

أما في عهد علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، فقد توقفت الفتوحات بسبب الفتن التي ثارت في عهده وانتهت بقتله رضي الله عنه، فلما انتقلت الخلافة إلى بني أمية، ودامت ٩١ سنة وتسعة أشهر، امتدت رقعة الدولة الإسلامية من البحر الأطلسي غرباً إلى حدود الصين شرقاً.

فتح الأندلس

ففي عام ٧٠٥/٨٦ وفي زمن الوليد بن عبد الملك الأموي تولى موسى بن نصير المغرب، فأخضع البربر، ونشر الأمن في تلك الديار، واستطاع أن يفتح طنجة فترك بها حامية يقودها طارق بن زياد الذي عسكر بمن معه من المسلمين على سواحل بحر الزقاق، وبدأت أنظارهم تتجه نحو الأندلس (إسبانيا) التي كان يحكمها القوط منذ عام ٥٠٧ م، غير أن أمرهم بدأ يضعف حيث قسمت إسبانيا إلى إمارات صغيرة (دوقيات)

---

[٤٠] السمعاني، "الأنساب": ج٤ص٣٩.

تابعة إلى الملك في طليطلة.

ركب طارق السفن في سبعة آلاف من المسلمين، أرفدوا لاحقا بخمسة آلاف آخرين، وألقت السفن مرساها قبالة الجزيرة الخضراء عند جبل سمي فيما بعد جبل طارق (وكذلك يسمّى جبل الفتح). وسار طارق باتجاه قرطبة، لمواجهة الإسبان الذين جمعوا جيشاً جراراً بلغ من سبعين إلى مائة ألف. وبدأ القتال يوم الأحد الثامن والعشرين من رمضان سنة ٩٢ هـ (٧١١/٠٧/١٩ م)، فأظهر الإسبان مقدرة عظيمة أول المعركة، وثبتوا لضغط المسلمين، ولكن ما لبثوا أن انهار جيشهم وانهزم واحتل المسلمون معسكرهم وغنموا ما فيه، واتجهوا لفتح المدن الرئيسية الأخرى، ففتحوا شذونة ومدوّرة وقرمونة وإشبيلية وأستجة ثم طليطلة. فأرسل موسى إلى طارق يأمره بالتوقف لأنه توغل أكثر مما ينبغي، ثم عبر موسى إلى الأندلس بناءً على استغاثة وجهها إليه طارق، وذلك في شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين، بجيش عدده ثمانية عشر ألفاً، ففتح بعض المدن التي لم يفتحها طارق. وبذلك تم فتح جميع الأندلس التي بقيت تحت حكم المسلمين زهاء ثمانية قرون أنشؤوا خلالها حضارة زاهرة لا تزال آثارها باقية حتى اليوم.

مراحل الحكم الإسلامي في الأندلس

تعاقب على حكم الأندلس خلال هذه القرون ستة عصور تاريخية وهي:

١. عصر الولاة ومدّته ٤١ سنة من ٧١٣/٩٥ إلى ٧٥٥/١٣٨.
٢. الدولة الأموية بالأندلس ومدّتها ٢٨٤ سنة من ٧٥٥/١٣٨ إلى ١٠٣١/٤٢٢.
٣. عصر ملوك الطوائف ومدّته ٦٢ سنة من ١٠٣١/٤٢٢ إلى ١٠٩١/٤٨٤.
٤. المرابطون بالأندلس ومدّتهم ٥٦ سنة من ١٠٩١/٤٨٤ إلى ١١٤٥/٥٤٠.
٥. الموحدون بالأندلس ومدّتهم ٩٢ سنة من ١١٤٥/٥٤١ إلى ١٢٣٥/٦٣٣.
٦. دولة بني الأحمر في غرناطة ومدّتها ٢٦١ سنة من ١٢٣٥/٦٣٦ إلى ١٤٩٢/٨٩٧.

ففي عصر الولاة برز عبد الرحمن الغافقي الذي واصل الفتوح في أوربا حتى وصل إلى باريس حيث أوقفه التحالف الصليبي، وهزمه في معركة بلاط الشهداء.

وتعدّ الدولة الأموية بالأندلس من أزهى العصور جميعاً وأطولها، وقد أسسها عبد الرحمن الداخل المعروف بصقر قريش، وقد قام بأعمال عسكرية كثيرة حتى يوطد حكمه في قرطبة ثم بدأ يسيطر على ما حولها من مدن الأندلس، وقد تعاقب على حكم الدولة بعده تسعة حكام، كان آخرهم هشام الثاني حيث استولى على الحكم في عهده المنصور بن أبي عامر إلى أن أسقطت الدولة الأموية عام ١٠٣١/٤٢٢، وبدأ عصر ملوك الطوائف.

فقد توزّعت الأندلس على الأمراء، فبنى كل منهم دويلة صغيرة، وأسس فيها أسرة حاكمة من أهله وذويه، وبلغت هذه الدويلات أكثر من عشرين دويلة كان يسودها الاضطراب والفوضى والفتن، فكانت هذه فرصة سانحة لكي يقوى شأن النصارى الإسبان، وتفاقم الأمر بسقوط طليطلة في يد النصارى سنة ١٠٨٥/٤٧٨

فأسرع المعتمد بن عبّاد أمير دولة بني عباد في إشبيلية، وكانت أكبر دولة بين ملوك الطوائف، يستنجد بدولة المرابطين في المغرب، واتفق مع يوسف بن تاشفين على مواجهة النصارى، وبالفعل استطاع المسلمون تحقيق نصرٍ عسكريٍ كبيرٍ على النصارى في موقعة الزلاقة سنة ١٠٨٦/٤٧٩.

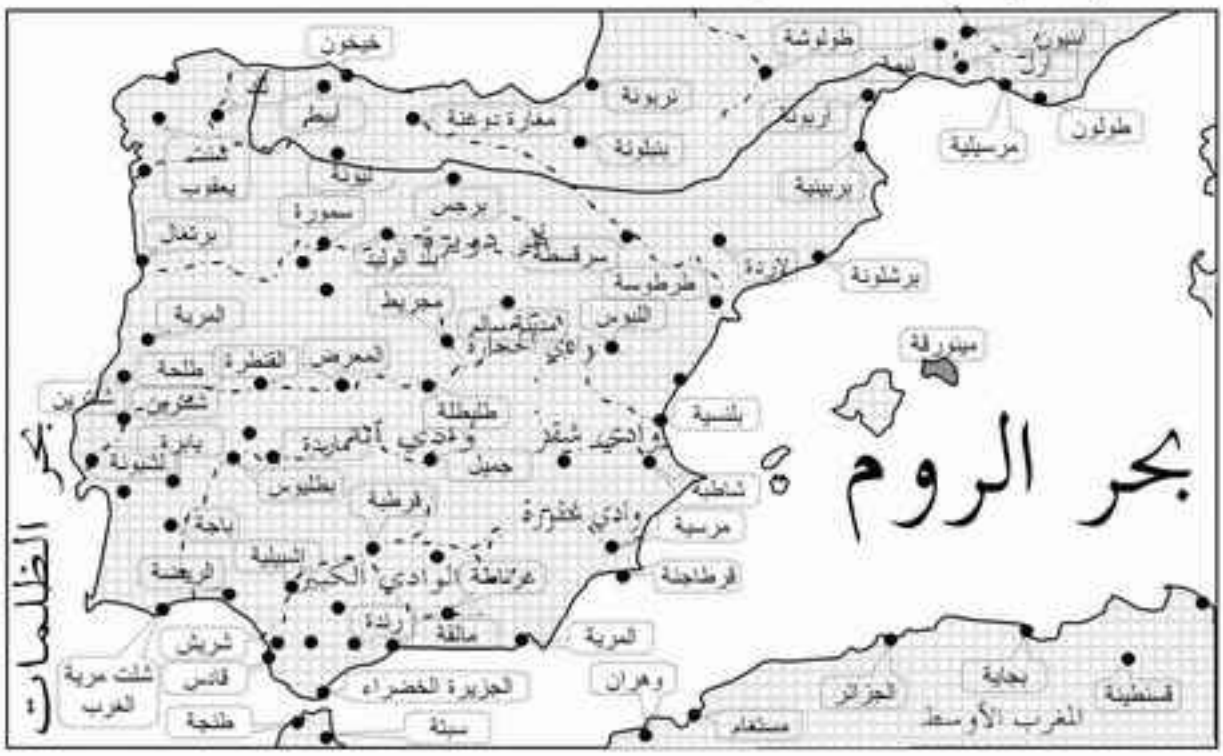

الأندلس العربية أيام الأمويين

ثم ما لبث المرابطون حتى استولوا على حكم الأندلس، فأسّسوا دولة مجاهدة استطاعت إنقاذ البلاد من السقوط فترة طويلة حتى ضعفت وتهاوت لترثها دولة الموحدين الذين واصلوا حماية الأندلس بانتصارهم على النصارى في موقعة الأرك سنة ١١٩٥/٥٩١، واستمرت الأعمال العسكرية بينهما حتى تلقى الموحدون ضربة قاسية بهزيمتهم في معركة العقاب سنة ١٢١٢/٦٠٩، وكانت هذه الهزيمة من أسباب انتهاء الوجود الإسلامي في الأندلس كلها؛ فقد سقطت دولة الموحدين وسقطت إشبيلية، وتهاوت كثير من المدن الأندلسية أمام زحف النصارى، فسقطت سرقسطة، وبعدها مرسية وتبعتها المرية، ومالقة، وبلنسية، وأشبونة وأصبح حكم المسلمين محصوراً في غرناطة التي أسس عليها بنو الأحمر أو بنو نصر دولة حكمت قرابة قرنين ونصف من الزمن حتى تهاوت هي الأخرى، وبسقوطها تم سقوط الأندلس نهائيا سنة ١٤٩٢/٨٩٧.

وفيما يلي سوف نلقي مزيداً من الضوء على الفترة التي سبقت ولادة الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي والفترة التي عاش فيها في الأندلس ثم سندع الكلام عن البلدان الأخرى التي مرّ فيها وسكنها إلى الفصول القادمة عند ذكرها.

بداية المرابطين في مراكش

بعد انهيار الخلافة الأموية في قرطبة تفتّت الأندلس إلى دويلات كثيرة كما رأينا: كل دويلة ملكها ملك يتبع لطائفة من الطوائف منهم البربر ومنهم العرب. فكان بنو عبّاد في إشبيلية وهم سلالة عربية الأصل يرجع نسبهم إلى قبيلة لخم اليمنية. كان أول ملوكهم أبو القاسم محمد بن عباد (٤٣٤/١٠١٣-٤٦٤/١٠٤٢) قاضياً على إشبيلية فاستولى على الحكم فيها ولقّب نفسه بالمعتضد.

في أثناء خلافة المعتضد بدأ أمر المرابطين في المغرب كحركة إصلاحية أسسها عبد الله بن ياسين ثم ما لبث أن قاد حركة جهادية لنشر الدين، فبدأوا بنشر الدعوة في الجنوب ثم باقي مناطق الصحراء الغربية. وفي عهد يوسف بن تاشفين تم فتح المغرب و غرب الجزائر ثم بناء مدينة مراكش التي اتخذوها عاصمة لهم.

وبعد وفاة المعتضد تولى ابنه القاسم أبو عمر الحكم ولقّب نفسه بالمعتمد وفي عهده أصبحت إشبيلية مركزاً قوياً وعاصمة للثقافة ودخلت العديد من المدن في سيادتها. ولم يزل المعتمد يمدّ سيطرته على بلدان الأندلس وامتدت مملكته إلى أن بلغت مدينة مرسية في الشرق. ثم بعد ذلك بدأ ملكه يتضعضع مما أدى إلى استيلاء النصارى على طليطلة سنة ٤٧٨/١٠٨٥ فلجأ المعتمد إلى المرابطين في المغرب كآخر حلّ للإبقاء على ملكه. فذهب المعتمد إلى مراكش إلى أمير المرابطين يوسف بن تاشفين الذي كان يسمي نفسه أمير المسلمين، فاستنصره فأسرع أمير المسلمين إلى إجابته فرجع المعتمد إلى الأندلس مسروراً ولم يدرِ أن كان في تدبيره تدميره.

بداية المرابطين في الأندلس

في سنة ٤٧٩/١٠٨٦ قاد ابن تاشفين أولى حملاته في الأندلس وانتصر على النصارى في معركة الزلاقة الشهيرة. ثم بدأت مرحلة أخذ وردّ على السلطة بين المرابطين وحكام الطوائف في الأندلس إلى حين بسط المرابطون السيطرة الكاملة على الأندلس سنة ٤٨٦/١٠٩٤، ونُفي المعتمد ثم توفي بعد ذلك في سجنه بأغمات في المغرب.

وحين ملك يوسف أمير المسلمين جزيرة الأندلس وأطاعته بأسرها أصبح من يومئذ هو وأولاده في جملة الملوك، واجتمع له ولابنه من أعيان الكتّاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق لغيره في عصر من العصور.

واتصلت حال أمير المسلمين يوسف في إيثار الغزو وقمع ملوك النصارى والحرص على ما يعود بالمصلحة على جزيرة الأندلس إلى أن توفي في شهور سنة ٤٩٣/١٠٩٩.

قام بأمره من بعده ابنه علي بن يوسف بن تاشفين وتلقّب بلقب أبيه أمير المسلمين فجرى على سنن أبيه في إيثار الجهاد وإخافة العدو وحماية البلاد وكان حسن السيرة جيد الطوية نزيه النفس بعيداً عن الظلم حتى إنه كان يُعدّ من الزهّاد أقرب منه إلى أن يُعدّ في الملوك.

الفقهاء وعلم الكلام

واشتد إيثار أمير المسلمين لأهل الفقه والدين وكان لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء فكان إذا ولّى أحداً من قضاته كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمراً ولا يبتّ حكومة في صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء، فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغاً عظيماً لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس وعظم أمرهم فكثرت أموالهم واتسعت مكاسبهم ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من كان له علم جيّد في علم الفروع في مذهب مالك. وقرّر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له وهجْرهم من ظهر عليه شيء منه وأنه بدعة في الدين. فلما دخلت كتب أبي حامد الغزالي رحمه الله إلى المغرب أمر أمير المسلمين بإحراقها وتقدّم بالوعيد الشديد من سفك الدم واستئصال المال إلى من وُجد عنده شيء منها واشتد الأمر في ذلك. ولكنّ هذا الحال ما كان يروق للصوفيين الذي كانوا يدرّسون كتب أبي حامد لتلاميذهم كما سنرى بعد قليل.

اختلال أحوال المرابطين

ومع بداية القرن الخامس الهجري اختلت حال أمير المسلمين بعد ذلك اختلالاً شديداً فظهرت في بلاده مناكر كثيرة وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ودعواهم الاستبداد والاستقلال وانتهوا في ذلك إلى التصريح، فصار كلٌّ منهم يصرّح بأنه خير من أمير المسلمين وأحق بالأمر منه. واستولى بعض النساء على الأحوال وأُسندت إليهن الأمور وأمير المسلمين في ذلك كله يزيد تغافله ويقوى ضعفه، وعكف على العبادة والتبتل فكان يقوم الليل ويصوم النهار مشتهراً عنه ذلك وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال فاختل لذلك عليه كثير من بلاد الأندلس وكادت تعود إلى حالها الأول لا سيما بعد أن قامت دعوة ابن تومرت وبدأ أمر الموحدين يظهر.[41]

دولة الموحدين

نشأت دولة الموحدين أول أمرها في المغرب ثم وصلت حدودها من طرابلس شرقاً إلى المحيط الأطلسي ثم امتدت إلى الأندلس. ومؤسس هذه الحركة هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت (٤٨٥/١٠٩٢-٥٢٤/١١٣٠) وهو من قبيلة زناتة البربرية، وكان يدعو إلى مذهب التوحيد فعُرف أصحابه بالموحدين وتلقب بالمهدي. بدأ في سنة ١١٢١/٥١٥ كآمر بالمعروف وناه عن المنكر وكان قد رحل إلى المشرق سنة ١١٠٧/٥٠١ في طلب العلم وانتهى إلى بغداد. وقيل أنه ذُكر للغزالي ما فعل أمير المسلمين بكتبه

---

[41] للمزيد من المعلومات حول هذه الفترة راجع كتاب: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني ٥١٠/١١١٦-٥٤٦/١١٥١، تأليف عصمت عبد اللطيف دندش، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٨. ولمعلومات عن دولة المرابطين راجع كتاب: أضواء جديدة على المرابطين، للمؤلف عصمت عبد اللطيف دندش، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩١. وانظر كذلك في كتاب: دولة الإسلام في الأندلس (عصر المرابطين والموحدين)، محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٤.

التي وصلت إلى المغرب من إحراقها وإفسادها وابن تومرت كان حاضرا في ذلك المجلس فقال الغزالي حين بلغه ذلك: ليذهبن عن قليل ملكه وليقتلن ولده وما أحسب المتولي لذلك إلا حاضراً مجلسنا! وكان ابن تومرت يحدّث نفسه بالقيام عليهم فقوي طمعه وكرّ راجعاً إلى الإسكندرية ثم إلى بجاية فأظهر بها تدريس العلم والوعظ واجتمع عليه الناس ومالت إليه القلوب فأمره صاحب بجاية بالخروج عنها حين خاف عاقبته فخرج منها متوجهاً إلى المغرب فنزل بضيعة يقال لها ملالة على فرسخ من بجاية وبها لقيه عبد المؤمن بن علي وهو إذ ذاك متوجه إلى المشرق في طلب العلم. فلما رآه محمد بن تومرت تفاوض معه واتفقا على إحياء العلم وإخماد البدع والجهاد في سبيل الله. وخرج ابن تومرت متوجهاً إلى مدينة تلمسان فأقام بمسجد بظاهرها يعرف بالعبّاد جارياً على عادته، وهو المكان الذي سيزوره الشيخ محيي الدين مرارا كلما زار تونس لأنه كان مكانا شهيرا يؤمّه المتصوفون.

بدأ ابن تومرت يعلم الناس الذين اجتمعوا حوله وازداد روّاده بسرعة وكان له في النفوس هيبة وفي الصدور عظمة فلا يراه أحد إلا هابه وعظم أمره، وكان شديد الصمت كثير الانقباض؛ إذا انفصل عن مجلس العلم لا يكاد يتكلم بكلمة. ثم صنّف لهم الكتب وكان على مذهب أبي الحسن الأشعري في أكثر المسائل إلا في إثبات الصفات فإنه وافق المعتزلة في نفيها وفي مسائل قليلة غيرها ويقال إنه يبطن شيئاً من التشيّع[42] غير أنه لم يظهر منه إلى العامة شيئا، وهو يُرجع نسبه إلى علي بن أبي طالب.

خاض الموحدون معركتين ضد المرابطين هزموا في الأولى سنة ١١١٧/٥١١ وانتصروا في الثانية سنة ١١٢٩/٥٢٤ وقد مرض ابن تومرت بعد هذه الموقعة وتوفي بعد أن أسس القواعد لإقامة دولة الموحدين.

عبد المؤمن بن علي القيسي (١١٢٩/٥٢٤-١١٦٣/٥٥٨)

كان ابن تومرت قد أوصى قبل وفاته بالخلافة لعبد المؤمن بن علي القيسي فلما توفي تولى عبد المؤمن الحكم واستطاع أن يقضي على المرابطين الذين كانت دولتهم تنهار وتتفتت كما رأينا أعلاه، فأقام على أنقاضهم دولة الموحدين ووحّد أفريقية الشمالية كلها حيث قضى على سلطة النرمنديين في تونس واستخلصها منهم سنة ١١٦٠/٥٥٥ وأخضع أمراء الطوائف المستبدين وأصبح ملكه ينبسط من أقصى ليبيا إلى المحيط الأطلنطي؛ فأخذ مراكش عام ١١٤٧/٥٤١ وتونس وليبيا عام ١١٦٠/٥٥٤ والأندلس ما بين ١١٤٦/٥٤٠-١١٥٤/٥٤٨.

فلما انتشرت دعوة الموحدين في المغرب تشوّف إليهم أعيان الأندلس لما حلّ بهم من الفساد مع

---

[42] إن انتساب ابن تومرت لعلي كرّم الله وجهه لا يعني مطلقا أنه كان شيعيا، فهذه دعوى مردودة كما هو الحال مع ابن العربي الذي يعتبره بعض الجاهلين شيعيا لأنه أبدى حبا شديدا لآل البيت وتكلّم عن المهدي وعن الأئمة. ولكنه أيضاً لا يخفى على أحد أنه يعتبر أن أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه إمامه وقدوته وكذلك عمر الفاروق رضي الله عنه ولا يفرّق بين أحد من الصحابة. كما سنناقش ذلك في الفصل السابع إن شاء الله تعالى. ولو كان ابن تومرت الذي أسس دولة الموحدين يضمر التشيّع لظهر ذلك على أتباعه الذين كانوا لا يحيدون عن تعاليمه قيد أنملة. فإذا كان هو يضمر التشيّع في بداية أمره خوفا من الناس فكيف يضمره ملوك الموحدين وقد ملكوا الأندلس والمغرب لأكثر من مئة سنة.

تراجع حكم المرابطين فيها كما رأينا، فجعلوا يوفدون في كل يوم عليهم ويتنافسون في الهجرة إليهم فدخل في ملكهم كثير من جزيرة الأندلس كالجزيرة الخضراء ورندة ثم إشبيلية وقرطبة وغرناطة. فلما رأى عبد المؤمن ذلك جمع جموعاً عظيمة وخرج يقصد جزيرة الأندلس فاستقبله الناس بالمبايعة، حتى دانت له معظم البلاد، فرجع إلى أفريقية لإخماد بعض الثورات فيها.

عهد عبد المؤمن في حياته إلى أكبر أولاده محمد وبايعه الناس، فلما توفي عبد المؤمن في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ١١٦٣/٥٥٨، اضطرب أمر ابنه محمد الذي لم يكن كفؤا للخلافة لما عرف عنه من إدمان شرب الخمر واختلال الرأي وكثرة الطيش وجبن النفس، فاتفق أعوان الدولة على خلعه فكانت ولايته إلى أن خلع خمساً وأربعين يوماً.

ابن مَرْدَنيش (١١٢٤/٥١٨-١١٧١/٥٦٧)

فبعد سقوط دولة المرابطين بدأت فترة ملوك الطوائف الثانية، مثل ابن مردنيش وبني غانية، إلا أن هذه الممالك لم تعمّر طويلا، فقد زحفت جيوش الموحدين إلى الأندلس لتحلّ مكان قوات المرابطين كما رأينا. فخاض عبد المؤمن وبنوه حروبا كثيرة ضد ابن مردنيش الذي استعان بالنصارى على الموحّدين، فهزمهم عبد المؤمن، وقتلهم أبرح قتل، واستخلص غرناطة سنة ١١٦٣/٥٥٧ من يد ابن مردنيش. فاستقر ابن مردنيش في مرسية وفالنسيا إلى أن مات سنة ١١٧٢/٥٦٨ فاستولى الموحدون على إمارته.

وابن مردنيش هو محمد بن سعد بن محمد بن أحمد بن مردنيش الجذامي الأندلسي، كان صهراً لأبي محمد عبد الله بن عياض فارس الأندلس، وبطلها المشهور الذي دافع عن شرقي الأندلس في أواخر دولة المرابطين، فلما توفي ابن عياض اتفق رأي أجناده على تقديم ابن مردنيش عليهم، وكان صغير السن شاباً، لكنه كان ممن يُضرب بشجاعته المثل.[٤٣]

وقد اهتم ابن مردنيش بجمع الصناع واشتغل ببناء القصور العجيبة والبساتين العظيمة، فبعد أن تولّى مرسية بعد ابن عياض وضمّ إليها بلنسية وشاطبة ودانية واتسعت إمارته، طمع بقرطبة وإشبيلية وكاد يستولي على جميع الأندلس، فنهض الموحدون لقتاله فلم يتردّد بالاستعانة بالإسبان عليهم، وكان ذلك أكبر زلاته، ولكنهم غلبوه وحصروه بمرسية، فمات في أثناء الحصار. قال الصفدي: سقته والدته السم، ولما أحس بالموت أمر أهله بتسليم البلاد إلى ابن عبد المؤمن. فحين رآهم يوسف بن عبد المؤمن فرح بهم، وسرّه قدومهم عليه، وتسلم بلادهم وتزوج أختهم، وأكرمهم وأقاموا معه. ولا شك أن والد ابن العربي الذي كان من المقربين عند ابن مردنيش ذهب معهم إلى إشبيلية وكان ذلك سنة ١١٧٢/٥٦٨ حين كان ابن العربي قد بلغ من العمر ثمانية سنين.

يقول الشيخ محيي الدين عن ابن مردنيش سلطان مرسية:

---

[٤٣] سير أعلام النبلاء، تصنيف الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه شعيب الأرنؤوط وحسين الأسد، مؤسسة الرسالة-بيروت، ١٩٨١-١٩٨٦: ج٢٠ص٢٤٠-٢٤٢.

ولقد نادى بعض الرعايا سلطاناً كبيراً بمرسية فلم يجبه السلطان، فقال الراعي كلمني فإن الله تعالى كلّم موسى. فقال له السلطان حتى تكون أنت موسى! فقال له الراعي حتى تكون أنت الله! فمسك السلطان له فرسه حتى ذكر له حاجته فقضاها. كان هذا السلطان صاحب شرق الأندلس يقال له محمد بن سعد بن مردنيش الذي وُلدت أنا في زمانه وفي دولته بمرسية.[1]

أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (١١٦٣/٥٥٨-١١٨٤/٥٨٠)

ولما تم خلع محمد بن عبد المؤمن الذي لم يكن كفؤا للخلافة واتفق وُجهاء الدولة على خلعه دار أمر الخلافة بين اثنين من ولد عبد المؤمن وهما يوسف وعمر وكانا من نُبهاء أولاده ونجبائهم وذوي الرأي السديد، فأباها عمر وبايع لأخيه أبي يعقوب وسلّم له الأمر؛ فاشتدت قوة الموحدين في عهد أبي يعقوب يوسف الأول الذي اجتاز البحر إلى الأندلس عام ١١٧١/٥٦٧ وأخضع بها من ظل موالياً للمرابطين كابن مردنيش وابن غانية، ثم تفرّغ لإخماد الحركات التي حدثت في المغرب ضد دولة الموحدين.

وبعد أن واجه الثورات التي قامت في المغرب قرر أبو يعقوب أن يواجه الخطر الصليبي فسار بجيوشه وعبر من المغرب إلى الأندلس سنة ١١٨٤/٥٨٠ وتوجه إلى إشبيليا ثم إلى مدينة شانترية وحاصرها. ولكن ألفونسو هينرك قاوم الحصار لثلاثة أيام فأمر يوسف برفع الحصار. ولكن الجيش تراجع بسرعة وعبروا النهر ولم ينتظروا أوامر الأمير الذي بقي مع قلة من جماعته. فانتهز الصليبيون الفرصة وهاجموهم ومزقوا باقي الجيش الموحدي وأصيب الأمير يوسف بجراح مميتة وتوفي في نفس السنة فارتحلت جيوش الموحدين عائدة مرة أخرى إلى إشبيليا وتم تعيين يعقوب ابن يوسف أميراً عليهم وعاد بقواته إلى المغرب.

يعقوب المنصور بن يوسف (١١٨٤/٥٨٠-١١٩٩/٥٩٥)

ولما استشهد يوسف بن عبد المؤمن سنة ١١٨٤/٥٨٠ خلفه ابنه أبو يوسف يعقوب المنصور الذي كان يجمع إلى عظمة السلطان السياسي رسوخ العقيدة، وشدة الحرص على أحكام الشريعة وسنتها، وبالرغم من أنه لم يكن من الغلاة في تقدير تراث بن تومرت وتعاليمه وقد أحدث ما يمكن أن يسمى انقلاباً حقيقياً في ميدان المذهب والعقيدة في دولة الموحدين؛ فإنه كان يتشدد في تطبيق أحكام الشريعة على حقيقتها، وفي الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود حتى في أهله وعشيرته، وكان يذهب في ذلك إلى حدود بعيدة، حتى قيل أنه عاقب على شرب الخمر بالقتل، وكان يشدد في إلزام الناس بإقامة الصلوات الخمس، ويأمر بالمناداة عليها، ويعاقب على تركها.

وفي عهد المنصور بلغت دولة الموحدين أوجّها في العزّ والمنعة، فقد صد عدوان الإسبان عدة مرات كان آخرها عام ٥٩١ هـ في الموقعة التي هزم فيها ألفونسو الثامن هزيمة منكرة وعرفت بوقعة الأرك التي

---

[1] الفتوحات المكية: ج٤ص٢٦٤، انظر كذلك في محاضرة الأبرار: ج١ص٣٤.

كانت تشبه موقعة الزلاقة. وبانتصاره في معركة الأرك استحق الخليفة يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن لقب المنصور.

وبعد أربعة سنوات في سنة ١١٩٩/٥٩٥ توفي أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بمدينة سلا، وكان قد سار إليها من مراكش بعد أن بنى مدينة محاذية لها وسماها المهدية فسار إليها ليشاهدها فتوفي بها.

محمد الناصر بن يعقوب المنصور (١١٩٩/٥٩٥-١٢١٥/٦١١)

ولكن ما أن توفي أبو يوسف يعقوب المنصور سنة ١١٩٩/٥٩٥ وخلفه ابنه الناصر لدين الله محمد، وكان عمره سبعة عشر سنة، أخذت الدولة تنهار تدريجيا حيث اشتبك مع الإسبان في معارك هزم فيها وكان أشدها وقعا موقعة العقاب سنة ١٢١٢/٦٠٩.

ولكن تمّ في عهد الناصر القضاء على العديد من الثورات في أفريقية، إلا أنّ الموحدين تلقوا هزيمة قاسية على يد النصارى في معركة حصن العقاب وبدأت بعدها الدولة تتهاوى بسرعة مع سقوط الأندلس في أيدي الإسبان وتونس في أيدي الحفصيين والجزائر في أيدي بني عبد الواحد الزناتيون. فبعد معركة العقاب أخذت قواعد الأندلس تسقط في يد الإسبان حتى سنة ١٢٤٦/٦٤٤ حيث سقطت قرطبة وبلنسية ودانية ومرسية ولم يبقى إلا غرناطة التي ثبتت خلف حصونها لفترة طويلة حتى انهارت وسقطت بيد الإسبان سنة ١٤٩٢/٨٩٧ وبسقوطها انتهى الحكم العربي في إسبانيا بعد حكم دام ثمانمائة عام.[٤٥]

كما قال الشيخ الأكبر رضي الله عنه حين مرّ على أطلال مدينة الزهراء كما سنروي في الفصل الثالث:

ديارٌ بأكناف الملاعب تلمعُ ... وما إن بها من ساكنٍ وهي بلقعُ
ينوح عليها الطير من كل جانبٍ ... فيصمت أحياناً وحيناً يرجّعُ
فخاطبت منها طائراً متغرّداً ... له شجنٌ في القلب وهو مروّعُ
فقلت: على ماذا تنوح وتشتكي؟ ... فقال: على دهرٍ مضى ليس يرجع

ورحم الله الشاعر الأندلسي الأديب الشهير أبا البقاء صالح بن شريف الرندي الذي قال في قصيدته الحزينة:

لكل شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يُغرّ بطيب العيش إنسانُ
هي الأمور كما شاهدتها دولٌ ... من سرّهُ زمنٌ ساءته أزمانُ
وهذه الدار لا تُبقي على أحدٍ ... ولا يدوم على حال لها شانُ

---

[٤٥] للمزيد من المعلومات حول دولة الموحدين راجع كتاب: الموحدون في الغرب الإسلامي (تنظيماتهم ونظمهم)، تأليف عز الدين عمر موسى، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩١. ولمعلومات عامة عن الوجود الإسلامي في الأندلس راجع كتاب: حكايتنا في الأندلس، للمؤلف عدنان عنيتاوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٥.

الوضع الثقافي في الأندلس قبيل ولادة ابن العربي

عاش ابن العربي في الفترة الذهبية من حكم الموحدين في الأندلس في ظل حكم الخليفة يوسف بن عبد المؤمن وابنه يعقوب المنصور، حيث انتعشت في زمانهما الحركة العلمية والدينية وبلغت أوجها، ثم رحل عنها مع استلام السلطان الشاب محمد الناصر بن يعقوب المنصور (٥٩٥/١١٩٩-٦١١/١٢١٥) حيث بدأت الدولة تنهار كما رأينا.

كان أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨/١١٦٣-٥٨٠/١١٨٤) محبا للفنون والآداب رغم ميوله الحربية، وكانت إشبيلية التي عاش فيها ابن العربي معظم فترة شبابه أقرب إلى قلب أبي يعقوب من مراكش، حاضرته في المغرب، لأنه ولد في قرطبة وقضى في إشبيلية قدرا كبيرا من طفولته وكان واليا عليها في عهد أبيه. وقد اختصّ يوسف بن عبد المؤمن هذه المدينة بعدد من أجمل عمائر الموحّدين بالأندلس فشيّد بها القصور والمساجد وحرص على تجميلها بالحدائق. فأقام الخليفة يوسف بعض المشروعات في إشبيلية، كان من أشهرها بناء القنطرة على نهر الوادي الكبير، وإمداد إشبيلية بالماء وتجديد أسوارها التي خرّبتها السيول، وإنشاء القصور والبساتين فيها. وكان من أهم أعماله تأسيس جامع إشبيلية الأعظم سنة ٥٦٧/١١٧٢، ثم أتم ابنه المنصور مئذنته الكبيرة سنة ٥٨٤/١١٨٨، والتي يبلغ ارتفاعها ٩٦ متراً وهي لا تزال قائمة حتى الآن.

وكذلك جلب الموحدون حولهم الأدباء والشعراء والفلاسفة الذين وجدوا في إشبيلية في عهد يوسف ابن يعقوب وعهد ابنه يعقوب المنصور (٥٨٠/١١٨٤-٥٩٥/١١٩٩) أفضل مكان ينهلون فيه العلوم ويتناقشون فيها بحرية وأمان. فكان يوسف بن يعقوب شغوفاً بالعلم يجلّ أهله ويقربهم إلى مجلسه، وكان هو نفسه عالماً بارعاً في الفقه وكاتبا، يحفظ صحيح البخاري، ملماً بعلوم اللغة العربية، وكان في مدة إقامته بالأندلس يزين مجلسه بقادة الفكر وزعماء الرأي من أمثال أبي بكر بن طفيل، وابن رشد الفيلسوف، وأبي بكر بن عبد الملك بن زهر الطبيب العبقري.

ابن طفيل (٤٩٤/١١٠٠-٥٨١/١١٨٥)

وابن طفيل هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل القيسي الأندلسي، ولد بوادي آش قرب غرناطة ودرس الفلسفة والطب في غرناطة على يد ابن باجة، فكان من أعظم فلاسفة الأندلس وأطبائها وعلمائها. تولى منصب الوزارة ومنصب الطبيب الخاص للسلطان أبي يعقوب يوسف، اشتهر بقصته "حي بن يقظان" التي تُرجمت إلى عدة لغات أجنبية، وقد ضمّنها آراءه ونظرياته. وقد استأثر ابن طفيل بحب الخليفة وعنايته، فكان لا يفارق مجلسه، ولا يصبر على بعده، وكان رسوله إلى العلماء يدعوهم لحضور مجلسه. توفي ابن طفيل في مراكش سنة ٥٨١/١١٨٤، وحضر السلطان جنازته.

ابن رشد (٥٢٠/١١٢٦-٥٩٥/١١٩٨)

وابن رشد هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الأندلسي القرطبي، ولد سنة ٥٢٠/١١٢٦، واشتهر

في العلوم الفلسفية والطبية وكان نحويا ولغوياً محدثاً بارعاً يحفظ الشعر. وكان متواضعاً، لطيفاً، دافئ اللسان، جم الأدب، قوي الحجة، راسخ العقيدة، وهو من العلماء والفلاسفة ممن كان لهم أثر عميق في التاريخ الإسلامي، وكان من أهمهم الفيلسوف ابن رشد الذي سيكون بينه وبين ابن العربي لقاء شهير سنرويه في الفصل الثاني.

أمضى ابن رشد عمره في البحث والتأليف. أخذ الطب عن أبي جعفر هارون وأبي مروان بن جربول الأندلسي. ويبدو أنه كان بينه وبين أبي مروان بن زهر، وهو من كبار أطباء عصره، مودّة، وأنه كان يتمتع بمكانة رفيعة بين الأطباء.

عكف ابن رشد على دراسة نصوص أرسطو فشرحها ولخصها وحاول التوفيق بين الفلسفة والشريعة وتصحيح العقيدة من المخالطات التي أدخلها المتكلمون، على حد زعمه، وخاصة الإمام الغزالي حيث كتب كتابا مهما في الرد عليه سماه تهافت التهافت ردا على ما كتبه الغزالي في تهافت الفلاسفة. وكذلك حاول ابن رشد تنقية فلسفة أفلاطون وأرسطو مما شابها من عناصر غريبة كآراء ابن سينا والفارابي التي كان يعارضها.

درس ابن رشد علم الكلام على مذهب الأشعرية وتخرج في الفقه على مذهب الإمام مالك، ودرس الفلسفة على ابن بشكوال وبعض علماء عصره، والطب على أبي جعفر هارون وابن طفيل، وحين استقال ابن طفيل من طبابة الخليفة اقترح أن يخلفه ابن رشد في منصبه فتم ذلك. وأقبل ابن رشد على تفسير آثار أرسطو، تلبية لرغبة أبي يعقوب يوسف، ثم عاد إلى قرطبة حيث تولى منصب قاضي القضاة، وبعد ذلك بنحو عشر سنوات ألحق بالبلاط المراكشي كطبيب خاص للخليفة. ولكن لما استلم أبو يوسف يعقوب المنصور السلطة لم يحظى عنده ابن رشد بنفس القدر الذي كان له عند أبيه يوسف، فلم يكن أبو يوسف يميل للفلسفة ثم أثرت عليه بعض دسائس الأعداء الحاقدين على ابن رشد مما جعل المنصور يتهم ابن رشد بالكفر والضلال ثم يبعده إلى أليسانة، وهي بلدة صغيرة بجانب قرطبة أغلبها من اليهود، وحرق جميع مؤلفاته الفلسفية، وحظر الاشتغال بالفلسفة والعلوم، ما عدا الطب، والفلك، والحساب. بعد ذلك عفا عنه السلطان واستقدمه إليه فأكرمه وقربه، ولكن الفيلسوف لم يهنأ بهذا العفو فأصيب بمرض لم يمهله سوى سنة واحدة وتوفي ابن رشد في مراكش في نفس السنة التي توفي فيها المنصور سنة ١١٩٨/٥٩٥.

لقد ترك ابن رشد العديد من الرسائل والمقولات الفلسفية والمؤلفات المهمة التي زادت عن المائة مثل كتاب "مناهج الأدلة"، وكتاب "فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال"، وهما من المصنفات الفقهية والكلامية، بالإضافة إلى كتاب "تهافت التهافت" الذي كان رد ابن رشد على الغزالي في كتابه تهافت الفلاسفة. وكذلك كتب ابن رشد شروحات كثيرة على كتب أرسطو مثل: تلخيص وشرح كتاب ما وراء الطبيعة (الميتافيزيك)، تلخيص وشرح كتاب البرهان أو الأورغنون، تلخيص كتاب المقولات (قاطيغورياس)، تلخيص كتاب الأخلاق، تلخيص كتاب السماع الطبيعي، شرح كتاب النفس، شرح كتاب القياس.

وسوف نذكر في الفصل الثاني قصة اجتماعه بابن العربي وما كان بينهما، وفي الفصل الثالث قصة

حضور الشيخ محيي الدين جنازة ابن رشد في قرطبة سنة ١١٩٩/٥٩٥.

المذهب الظاهري

وعلى الرغم من أن المذهب المالكي كان هو المذهب السائد في بلاد الأندلس إلا أن الكثير من الناس تأثر بالمذهب الظاهري الذي قاده ابن حزم (٩٩٤/٣٨٤-١٠٦٣/٤٥٦). ويقال إن الخليفة يعقوب ابن يوسف أعرض عن مذهب مالك، وأخذ بمذهب الظاهرية، فعظم أمر الظاهرية في أيامه وكان منهم في المغرب خلق كثير. وقد اتُّهم ابن العربي نفسه أنه كان ينقل عن ابن حزم الذي كان له الفضل في إنعاش المذهب الظاهري في الأندلس، ولكن الشيخ الأكبر نفى ذلك بشكل قطعي، وقال بشكل صريح إنه يعتقد بوجوب الأخذ بإجماع العلماء بعد القرآن والسنة، حيث نقل عنه قوله:

نسبوني إلى ابن حزم وإني ... لست ممن يقول قال ابن حزم
لا ولا غيره فإن مقالي: ... قال "نص الكتاب"، ذلك علمي
أو "يقول الرسول" أو "أجمع الخلق" ... على ما أقول حكمي

ولكن الشيخ الأكبر كان يجلّ ابن حزم ويذكره بالخير، فقد روى عنه بعض الآراء والأحاديث، وذكر أنه رأى مرة النبي صلّى الله عليه وسلّم في المنام وقد عانق أبا محمد ابن حزم المحدث فغاب الواحد في الآخر فلم يرَ إلا واحداً وهو رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ثم قال إن هذه هي غاية الوصلة.[٤٦]

وابن حزم هو علي بن أحمد بن حزم بن يزيد، ولد في قرطبة سنة ٩٩٤/٣٨٤ وكان شاعرا وأديبا يتميز بحاضرة تجعله يرتجل الشعر. نشأ في بيت ثراء وغنى ثم تقلد الوزارة ولكنه زهد في الدنيا وتركها لأصحابها وعكف على العلم والتصنيف حيث كتب ما يزيد عن أربعمائة مصنف منها "المحلى"، "جمهرة أنساب العرب"، و"طوق الحمامة". ولكنه واجه حملات شديدة من قبل الفقهاء حتى إن مصنفاته قد أحرقت ومُزّقت علانية. توفي ابن حزم سنة ١٠٦٣/٤٥٦.

والمذهب الظاهري يقوم على أساس أن المصدر الفقهي الوحيد هو ظواهر النصوص من الكتاب والسنة، فلا مجال للرأي أو للقياس في الأحكام الشرعية، وكذلك الاستحسان، والذرائع، والمصالح المرسلة، وباقي وجوه الرأي، كلها غير صالحة عندهم في الحكم، بل يأخذون بالنصوص وحدها، فإن لم يوجد نص فالأصل الإباحة.

وقد قام بإنشاء هذا المذهب وبيان أحكامه وتوضيح أدلته داود الأصفهاني وهو أبو سليمان بن علي بن خلف الأصفهاني، ولد بالكوفة عام ٨١٧/٢٠٢، وتوفي عام ٨٨٣/٢٧٠، ثم جاء ابن حزم الأندلسي الذي كان له الفضل في بيان هذا المذهب وبسطه ونشره في الأندلس.

---

[٤٦] الفتوحات المكية: ج٢ص٥١٩، وأيضاً في رسالة المبشرات، مخطوطة بايزيد ١٦٨٦.

الحركة الصوفية في الإسلام

يختلف المفكرون كثيرا حول مفهوم التصوف، فمنهم من يصرّ على أنه شيء دخيل على الإسلام جاء إليه من الديانات الشرقية حينما بدأ الإسلام بالانتشار خارج الجزيرة العربية، ومنهم من يؤكد على أنه شيء من صميم الإسلام وقد بدأ منذ طلوع فجر الإسلام الأول. والحقيقة في ذلك أن الاصطلاح جديد ولكن المفهوم أصيل بأصالة الإسلام ذاته، فالصحابة والتابعون كانوا صوفيين بالفعل وإن لم يكونوا يسمون كذلك، فالتصوف ما هو إلا الزهد والعبادة وترك الدنيا والإقبال على الله تعالى. غير أن الشكل الهيكلي للتصوف بدأ يتبلور منذ بداية القرن الثاني الهجري مثله مثل بقية العلوم الإسلامية كالفقه وعلوم التفسير والحديث كلها لم تكن معروفة منذ بداية الإسلام.

واختلف الناس كثيرا عن أصل كلمة تصوف ومدلولها فمنهم من قال إن أصلها من لبس الصوف أو من أهل الصفّة، ومنهم من قال إنها من الصفاء أو من الاصطفاء وكذلك من الصفّ الأول، إلى ما هنالك.[47] والحقيقة أن الشيخ محيي الدين ابن العربي، رغم أنه كثيرا ما يطلق لفظة الصوفيّة على عموم أهل الله، إلا أنه يعدّهم عند التحقيق صنفا معيّنا من رجال الله تعالى حيث يقسّم الشيخ رضي الله عنه رجال الله إلى ثلاثة أصناف: العبّاد والصوفيّة والملاميّة: فالعبّاد هم "رجال غلب عليهم الزهد والتبتّل والأفعال الظاهرة المحمودة كلها وطهّروا أيضاً بواطنهم من كل صفة مذمومة قد ذمّها الشارع (محمد صلّى الله عليه وسلّم)، غير أنهم لا يرون شيئاً فوق ما هم عليه من هذه الأعمال ولا معرفة لهم بالأحوال ولا المقامات ولا العلوم الوهبية اللدنّية ولا الأسرار ولا الكشوف ولا شيئاً مما يجده غيرهم."[48] وأما الصوفية، وهم أعلى من العبّاد، فهم "مثل العبّاد في الجدّ والاجتهاد والورع والزهد والتوكل وغير ذلك، غير أنهم مع ذلك يرون أن ثمّ شيئاً فوق ما هم عليه من الأحوال والمقامات والعلوم والأسرار والكشوف والكرامات، فتتعلق هممهم بنيلها فإذا نالوا شيئاً من ذلك ظهروا به في العامة من الكرامات، لأنهم لا يرون غير الله وهم أهل خُلق وفتوّة ... وهم بالنظر إلى الطبقة الثالثة أهل رعونة وأصحاب نفوس وتلامذتهم مثلهم أصحاب دعاوي يشمّرون على كل أحد من خلق الله ويظهرون الرياسة على رجال الله".[49] وأما الصنف الثالث وهم الأعلى بين مراتب الرجال، فهم الملاميّة وسوف نأتي على ذكرهم كثيرا خلال هذا الكتاب، ولكننا نقول هنا أنهم رجال لا يزيدون على الصلوات الخمس إلا الرواتب، لا يتميزون عن المؤمنين المؤدّين فرائض الله بحالة زائدة يُعرفون بها، يمشون في الأسواق ويتكلمون مع الناس فلا يُعرفون لاحتجاب أحوالهم عن عامة الناس، وهم أرفع الرجال وتلامذتهم أكبر الرجال. فالعبّاد متميّزون عند العامّة بتقشّفهم وابتعادهم عن الناس وأحوالهم وتجنّب معاشرتهم بالجسم، والصوفية متميّزون عند العامة بالدعاوي وخرق العوائد من الكلام على الخواطر وإجابة الدعاء والأكل من الكون وكلّ خرق عادة ... وهذا الحال الذي هم فيه قليل السلامة من المكر والاستدراج، والملاميّة لا

---

[47] راجع الباب الأول من كتاب حقائق عن التصوف للشيخ عبد القادر عيسى، دار الألباب-دمشق، ٢٠٠٢.

[48] الفتوحات المكية: ج٣ص٣٤.

[49] الفتوحات المكية: ج٣ص٣٤-٣٥.

يتميّزون عن أحد من خلق الله بشيء فهم المجهولون حالهم حال العوام.[50]

فالحقيقة إذاً أنّ الشيخ محيي الدين ابن العربي لم يكن صوفيا بالمعنى الدقيق للكلمة، حيث أنه لم يكن يظهر أي شيء من الكرامات أو خرق العوائد، وما تميّز به من العلم والمعرفة يمكن من حيث العموم أن يظهر على أي عالم أو فقيه، فلم يكن الشيخ محيي الدين صوفيا على التحديد وإنما كان من رجال الله تعالى وله مرتبة مميّزة كما سنرى خلال هذا الكتاب إن شاء الله تعالى. أما إذا أخذنا التصوف بالمعنى العام وهو بمعنى تصفية النفس وصفاء القلب لعبادة الله تعالى، فقد كان هذا مذهب المسلمين الأوائل وغيرهم الكثير من رجال الله تعالى والشيخ محيي الدين كان من أبرزهم.

ومن الصوفية الأوائل إبراهيم بن أدهم ومالك بن دينار وبشر الحافي الذين اشتهروا بالزهد والتفرّغ للعبادة. وكذلك من الصوفية الكبار: أبو القاسم الخراز (توفي ٩١٠/٢٩٨) المعروف بالجنيد ويلقب بسيد الطائفة، وأبو يزيد البسطامي (٨٧٦/٢٦٣) وذو النون المصري (توفي ٨٥٩/٢٤٥) والحلاج (توفي ٩٢١/٣٠٩) والحكيم الترمذي (توفي ٩٣٢/٣٢٠) وأبو بكر الشبلي (٩٤٥/٣٣٤) الذين يتشهد بهم الشيخ محيي الدين كثيرا.

ولكن الطرق الصوفية المعروفة اليوم لم تنشأ إلا في وقت متأخر مواز للفترة التي كان بها الشيخ محيي الدين ابن العربي. ومن أهم الطرق الصوفية الطريقة القادرية المنسوبة لعبد القادر الجيلاني (توفي ١١٦٥/٥٦١) والرفاعية المنسوبة لأبي العباس أحمد بن الحسين الرفاعي (توفي ١١٤٥/٥٤٠) والشاذلية المنسوبة إلى أبي الحسن الشاذلي (توفي ٦٥٦) والدسوقية والمولوية والبدوية وغيرها من الطرق الكثيرة المنسوبة للشيوخ الكبار في تاريخ الصوف. ومن الطرق الحديثة الطريقة النقشبندية المنسوبة إلى محمد بهاء الدين النقشبندي (توفي ١٣٨٩/٧٩١).

ومن أشهر شيوخ التصوف الذين ظهروا بعد الشيخ محيي الدين ابن العربي: الشيخ أبو الحسن الشاذلي (توفي ١٢٥٨/٦٥٦)، والشيخ عبد الغني النابلسي (توفي ١٨٧٠/١٢٨٧) وقد تأثر كثيرا بالشيخ الأكبر وكتب العديد من الكتب حوله، وأبو الهدى الصيادي الرفاعي (توفي ١٨٧٠/١٢٨٧) و أحمد التيجاني (توفي ١٨١٥/١٢٣٠).

وبشكل عام يمكن أن نقسم تاريخ التصوف إلى مرحلتين. ففي المرحلة الأولى، في عصر الرسول صلّى الله عليه وسلّم والصحابة والتابعين، كان التصوف موجودا من غير أن يأخذ اسما أو هيكلية محددة بل كان جزءً لا يتجزأ من الإسلام الذي شرع الأخلاق والزهد والعبادة ونظمها على أحسن نظام، ثم في المرحلة الثانية بدأت تتسرب بعض الأفكار الغريبة من معتنقي الديانات والفلسفات الأخرى وتدخل إلى الإسلام، وبدأ التصوف يأخذ شكلا منهجيا خرج في كثير من الأحيان عن روح الإسلام وتعاليمه.

ولكن لا بدّ من التأكيد على أن الانحراف لم يحصل فقط في التصوّف وإنما في تصرّف بعض المسلمين سواء كانوا ممكن ينتسبون إلى التصوّف أو لا، وبالتالي لا يمكن لهذا الانحراف أن ينسف قواعد

---

[50] الفتوحات المكية: ج٣ص٣٥.

التصوّف كما لا يمكن له أن ينسف قواعد الإسلام، فلا يجوز الحكم على المذهب من خلال بعض المنتسبين إليه، بل لا يجوز الحكم على المذهب ككل وإنما يُنظر إلى أسسه المختلفة ويحكم عليها من خلال مدى توافقها مع ما ثبت من الشريعة الإسلامية، فإن توافقت في كثير واختلفت في قليل حاولنا تعديل هذا القليل وتقويمه وإعادته إلى نصابه.

وقبل المضي في الحديث عن حركة التصوف في المغرب والأندلس في مرحلة ما قبل ابن العربي لا بد من التأكيد على وجود تشابه وتوافق طبيعي بين الأديان والفلسفات المختلفة نظرا لأنها تنبع كلها من معين واحد سواء كان سماويا عن طريق الرسل والأنبياء أو كان فلسفيا عن طريق المفكرين، فالكل يبحثون عن الحقيقة وكل واحد وصفها من منظاره، فلا يجوز بعد ذلك إن وجدنا فكرة أو معرفة مشابهة لمعتقد قديم ديني أو فلسفي أن نقول أن ذلك خارج على الإسلام، فالرسول صلّى الله عليه وسلّم بُعث ليتمم مكارم الأخلاق لا ليأتي بأخلاق مختلفة جذريا، والأخلاق هنا أمر عام ينطبق على المعرفة والأدب والعلم والفلسفة والعقيدة، وإن وجود التشابه بين عقيدة قديمة وعقيدة إسلامية لا يعني تناقضا أبدا، وكذلك لا يعني أن المسلمين أو الصوفية قد أخذوا هذه المعرفة المشتركة من الأديان أو العقائد السابقة، بل هي من الإسلام الذي يحوي فيما يحويه كل هذه العقائد السابقة الصحيحة، قبل أن يتم تحريفها بقصد أو بسبب طول الأمد. والشيخ محيي الدين قد أصّل هذه الحقيقة من خلال مفهومه عن الوراثة النبوية، فبعض الأولياء تكون وراثتهم عيسوية، وبعضهم موسوية وبعضهم محمدية أو غير ذلك من الأنبياء، ولكن الكل في النهاية ينهلون من نبع الشريعة الإسلامية، كما سنرى ذلك في الفصل القادم.

وبالتالي فإننا لا يجوز أن نساق وراء أفكار بعض المستشرقين الذين قالوا، وتبعهم في ذلك العديد من الباحثين المسلمين، أن التصوّف (ونقصد التصوّف الصافي) استمدّ من منابع الديانات السابقة كالزرادشتية الفارسية والمذاهب الهندية والنصرانية والفلسفات القديمة مثل الأفلاطونية الحديثة، ثم اختلطت هذه العناصر كلها ببعض فكانت نزعات مختلفة، وطرق مختلفة على مدى العصور، كما قال أحمد أمين في "ظُهر الإسلام".[٥١]

وكما قلنا فإن هذا الرأي قال به بعض المستشرقين مثل "آدم ميتز" الذي قال إن المسلمين أحسوا في أعماق نفوسهم بحاجات جديدة منذ القرن الثالث الهجري وسرعان ما تقدمت لسدّ هذه الحاجات الديانات القديمة التي كانت مستترة ولا سيما النصرانية، وهي الفلسفة اليونانية المشربة بالنصرانية، وقد ضرب أمثلة على ذلك فقال إن الحارث بن أسد المحاربي (توفي ٢٤٣/٨٥٨) تأثر بالنصرانية، لوجود شبه بين أقواله وخطبة المسيح، وإن الحكيم الترمذي (توفي ٣٢٠/٩٣٢) يقول إن عيسى عليه السلام خاتم الأولياء، وإن القول بالفناء هو من أقوال الغنوسطيين القديمة.[٥٢] وقد قال بمثل هذا القول الكثير من المستشرقين من قبل مثل "رينولد نيكلسون" و"جولد تسيهر". والدليل الواضح على نقض هذه الدعوى أن أغلب الصوفية لم يكن

---

[٥١] ظُهر الإسلام، أحمد أمين، مكتبة النهضة المصري-القاهرة، ١٩٨٢: ج٢ص٥٨.

[٥٢] الفصل التاسع والعاشر من كتابه تاريخ الحضارة الإسلامية.

لديهم أي اطلاع على العقائد والفلسفات الأخرى، بل وأغلبهم كان أو بدأ أميًا لا يقرأ ولا يكتب، ومع ذلك خرجوا بعلوم ذوقية رفيعة عبّروا عنها من خلال كتبهم وأشعارهم التي أصبحت أساسا يدرس في الأدب الإسلامي والعالمي.

الحركة الصوفية في المغرب والأندلس

ثم نعود إلى تلخيص تاريخ الحركة الصوفية وخاصة في المغرب والأندلس فنقول أنه لا شكّ أن التصوّف في الأندلس بدأ منذ أن طلع الفجر الأول للإسلام هناك، في نهاية القرن الأول الهجري، ولكن مثله مثل التصوف في المشرق لم يتّخذ معالم واضحة في بدايته، بل كان نهجا إسلاميا طبيعيا سلكه بعض الزهّاد والعبّاد.

منذ نهاية القرن الثالث الهجري، بداية القرن التاسع الميلادي، نجد العديد من الصوفية قد برزوا في المغرب والأندلس فظهرت مناهج زهدية متفرقة فكان أبو محمد بن عبد الله التاهرتي (توفي ٣١٣/٩٠٥) زاهدا تبنى فكرة المحبة والإشراق، وفي قرطبة كان أحمد بن مخلوف الميلي المعروف بالخياط (توفي ٣٩٣/١٠٠٣) الذي لزم المنهج العملي القائم على المرابطة، وعبد الله بن زياد الله الطبني (توفي ٤١٠/١٠١١) في قرطبة أيضاً.[٥٢] وقام أبو القاسم عبد الرحمن الهمذاني المعروف بالخراز والوهراني (توفي ٤١١/١٠١٨) برحلات علمية استغرقت عشرين سنة وشملت بينات الزهد والتصوف كالبصرة وبغداد والحجاز ومصر وخرسان ونيسابور ثم الأندلس، فخلص من خلالها إلى طريقة تجمع بين الالتزام بالسنة النبوية والزهد والانقباض والعلم.[٥٤]

وفي المغرب العربي برز بكر بن حماد بن سمك بن إسماعيل الزناتي التاهرتي (توفي ٢٩٥/٩٠٩) الذي تأثر بصوفية الشرق من خلال رحلاته.[٥٥] وفي القيروان برز الزاهد الفقيه سحنون بن حبيب التنوخي (توفي ٢٤٠/٨٤٥) الذي تميز منهجه بالزهد في الدنيا والتعبد وفق الشريعة الإسلامية.[٥٦] وكذلك استفاد احمد بن واضح من رحلاته إلى المشرق في القرن الخامس ثم عاد إلى بجاية فكان بينه وبينه فقهائها الكثير من المناظرات.[٥٧] وفي القرن الرابع قام أبو عبد الملك مروان بن محمد الأندلسي (توفي ٤٤٠/١٠٤٨) بتأسيس

---

[٥٣] ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تأليف القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية-الرباط، ١٩٨٣: ج٤ص٦٢٨.

[٥٤] عياض، "ترتيب المدارك": ج٤ص٦٩٠.

[٥٥] بونابي الطاهر، الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، قسم التاريخ، ١٩٩٩-٢٠٠٠، ص٢٠.

[٥٦] أبو زيد عبد الرحمان الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور ومحمد منصور، مكتبة الخانجي-القاهرة، ١٩٧٢: ج٢ص٢٨١.

[٥٧] عياض، "ترتيب المدارك": ج٤ص٤٤٥.

رباط درس فيه العلم وصنف فيه العديد من المصنفات.[58]

أما بالنسبة للمراجع والكتب الصوفية التي كان يعتمد عليها الأندلسيون والمغربيون فهي الكتب الشهيرة التي ألفها أبو حامد الغزالي (توفي ١١١١/٥٠٥) مثل "إحياء علوم الدين"، وكتاب "الرعاية لحقوق الله" للحارث بن أسد المحاسبي (توفي ٨٥٨/٢٤٣)، و"قوت القلوب" لأبي طالب المكي، و"الرسالة القشيرية" لأبي القاسم القشيري (توفي ١٠٧٢/٤٦٥). وكانت هذه الكتب متداولة في المغرب والأندلس وتدرس في الحلقات بتلمسان وبجاية وقلعة بني حماد، فكان الصوفي عبد السلام التونسي (توفي ١٠٩٣/٤٨٦) يدرّس برابطته بتلمسان كتاب "الرعاية" للمحاسبي، وفي قلعة بن حماد كان الصوفي أبو الفضل ابن النحوي (توفي ١١١٩/٥١٣) يدرّس الإحياء للغزالي ويختمه خلال شهر رمضان.[59] وكذلك كان الشيخ أبو مدين ببجاية (توفي ١١٨٩/٥٩٤)، وهو أحد شيوخ الشيخ محيي الدين كما سنرى، يعتمد على كتاب إحياء علوم الدين والرسالة القشيرية لتدريس طلابه وأطلعهم أيضاً على كتاب الرعاية للمحاسبي.[60]

الشيخ محيي الدين والمذاهب الصوفية والفكرية الأخرى

يخطئ الكثير من الدارسين لابن العربي حين يعدّون أنه قد تأثر بالمذاهب الفكرية والفلسفية الأخرى كالأفلاطونية الحديثة وغيرها.[61] فلا شكّ أن هناك بعض التشابه بين علوم الشيخ الأكبر وبعض هذه المذاهب ولكن هذا لا يعني أبداً تأثر الشيخ بها.فكما هو معروف في التصوف عموما لقد ثبت في كلام الشيخ محيي الدين أنه لا يكتب من فكره وإنما مما علّمه الله تعالى عن طريق الكشف، فيقول الشيخ في الفتوحات:

> فلا أتكلم إلا على طريق الإذن كما أني سأقف عندما يُحدّ لي: فإن تأليفنا هذا وغيره لا يجري مجرى التواليف ولا نجري نحن فيه مجرى المؤلفين، فإن كل مؤلف إنما هو تحت اختياره، وإن كان مجبوراً في اختياره، أو تحت العلم الذي يبثّه خاصّة: فيلقى ما يشاء ويمسك ما يشاء، أو يلقي ما يعطيه العلم وتحكم عليه المسألة التي هو بصددها حتى تبرز حقيقتها، ونحن في تواليفنا لسنا كذلك إنما هي قلوب عاكفة على باب الحضرة الإلهية، مراقبة لما ينفتح له الباب، فقيرة خالية من كل علم، لو سُئلت في ذلك المقام عن شيء ما سمعت لفقدها إحساسها؛ فمهما برز لها من وراء ذلك الستر أمرٌ ما بادرت لامتثاله وألّفته على حسب ما يحدّ لها في الأمر.[62]

---

[58] عياض، "ترتيب المدارك": ج٤ص٧١٠.

[59] التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، أبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي (المعروف بابن الزيات)، تحقيق أحمد التوفيق، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية-الرباط، ١٩٨٤، ص٧٣، ٩٢.

[60] التشوف: ص٥٨.

[61] انظر مثلا تحقيق الدكتور أبو العلا عفيفي لكتاب فصوص الحكم، دار الكتاب العربي-بيروت، ٢٠٠٢، المقدمة والتعليقات.

[62] الفتوحات المكية: ج١ص٥٩.

وعلى كلّ حال فإن هذا لا يعني أن الشيخ محيي الدين لم يطّلع على الكتب الأخرى، وإن كان على الحقيقة لم يعكف أبدا على الدراسة إلا فيما يخص القرآن الكريم والحديث الشريف، كما سنرى في الفصل القادم، وهو لم يتطرّق أبداً للعلوم النظرية كالفلسفة والفقه وغيرها.

أما بخصوص المذاهب الصوفية الأخرى، فإن الشيخ محيي الدين كذلك لم يتأثر بها بمعنى أنه لم يقم بتقمّص أي مذهب محدد، ولكنه لا شكّ اتّبع سنّة أهل الله في الذكر والزهد والخلوة وغيرها مما هو معروف في طريق الصوفية. وكما سنرى في الفصل القادم، فإن الشيخ محيي الدين رضي الله عنه قد سبق فتحه رياضته، بمعنى أنه لم يسلك طريق التصوف ابتداءً ولم يمرّ في مراحل السلوك الطويلة التي عادة ما يكابدها المريدون حتى يصلوا إلى الفتح، بل كان الأمر معكوسا بالنسبة له لأنه كان مُراداً قبل أن يكون مريداً.

ومع ذلك فقد التزم الشيخ الأكبر مع شيوخ التصوف المعروفين في وقته كما سنذكرهم بعد قليل في الفصل الثاني، ولكنّه لم يتأثر كثيرا بالصوفية السابقين رغم أنه كثيرا ما يستشهد بكلامهم. وهذا بخلاف ما يحاول الباحث أسين بلاثيوس إثباته في كتبه بأن الشيخ محيي الدين قد تأثر بالمدارس الصوفية التي كانت سائدة في الأندلس كمدرسة المرية وابن مسرّة (توفي ٩٣١/٣١٩) مع أنه أحيانا يستشهد بأقواله.[٦٣]

شرح قصيدة مطلع الفصل

كما سنفعل في بداية كل فصل، فقد وضعنا قصيدة صغيرة في بداية هذا الفصل فيها إشارات على محتوى الفصل وأهميّته، وهذه العادة أخذناها من الشيخ محيي الدين رضي الله عنه وهو الذي يبدأ جميع الأبواب الستين والخمسمائة في الفتوحات المكية وكذلك العديد من أبواب كتبه الأخرى بقصائد مختصرة.

وفي هذه القصيدة التي ذكرناها أعلاه يفتخر الشيخ محيي الدين بنسبه الحاتمي وباسمه الذي هو على اسم النبي محمد صلّى الله عليه وسلّم، ثم يضيف أن ذلك ليس ادّعاءً وتبلّدا بل هو حقيقة رغم بعد مكان المولد عن مكان المنشأ. ولقد نسب الشيخ نفسه في قصيدة أخرى إلى اليمن حيث قال في ترجمان الأشواق:[٦٤]

هـــي بنـــت العـــراق بنـــت إمـــامي وأنـــا ضـــدّها ســـليل يمـــاني

وفي ذلك الكتاب يقول الشيخ الأكبر في شرحه لهذا البيت أن أهل اليمن يتميّزون بالإيمان والحكمة ورقّة الأفئدة، وذلك من "نَفَس الرحمن" وفي ذلك إشارة للحديث النبوي: "إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمن".[٦٥] وقد خصص الشيخ رضي الله عنه الباب التاسع والأربعين من الفتوحات المكية

---

[٦٣] الفتوحات المكية: ج١ص١٤٨-١٤٩، ج٢ص٥٨١.

[٦٤] ترجمان الأشواق: ص٨٤.

[٦٥] أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة. انظر في: المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، للحافظ العراقي، بهامش كتاب الإحياء: إحياء علوم الدين، لأبي حامد بن محمد الغزالي، دار الفكر-بيروت، ١٩٧٥، المجلد الأول، كتاب قواعد العقائد، رقم ٢.

لهذا الحديث، لا سيما وأنه هو نفسه يُنسب للأنصار من جهة أمه كما سنرى في الفصل القادم، وقد كان الأنصار تنفيسا للشدة والضيق التي كان بهما النبي صلّى الله عليه وسلّم في بداية دعوته، فقبلوا دعوته ونصروه رضي الله عنهم أجمعين لما في نفوسهم من الرقة والحكمة والرحمة. وقد تأصّلت هذه النسبة في ابن العربي حتى إن الله تعالى جعله من حملة العرش وخصّه بأفضل القوائم وهي قائمة الرحمة كما يقول الشيخ في الباب الأحد والسبعين وثلاثمائة من الفتوحات: "ثم إنه تعالى خلق ملائكة من أنوار العرش يحفّون بالعرش وجعل فيما خلق من الملائكة أربع حملةٍ تحمل العرش من الأربع القوائم الذي هو العرش عليها، وكل قائمة مشتركة بين كل وجهين إلى حد كل نصف وجه، وجعل أركانه متفاضلة في الرتبة، فأنزلني في أفضلها من جملة حملته؛ فإن الله وإن خلق ملائكة العرش فإن له من الصنف الإنساني أيضاً صوراً تحمل العرش، الذي هو مستوى الرحمن، أنا منهم؛ والقائمة التي هي أفضل قوائمه هي لنا، وهي خزانة الرحمة، فجعلني رحيماً مطلقاً مع علمي بالشداند، ولكن علمت أنه ما ثم شدة إلا وفيها رخاوة ولا عذابا إلا وفيه رحمةٌ ولا قبضاً إلا وفيه بسط ولا ضيقاً إلا وفيه سعة فعلمت الأمرين."[٦٦]

البيت الثاني من قصيدة القصيصاء منقوش على مصاطب الحجرة التي يقيم فيها مقام الشيخ محيي الدين في مسجد الصالحية في دمشق

ويُعدّ هذا النص بحقٍ أساساً لرؤية الشيخ الأكبر للعالم وأصله ومآله، فهو يرى أن كل شيء صدر من الرحمة ولا يكون مآله إلا إلى الرحمة. ومن هنا تنشأ مقولة الشيخ محيي الدين حول إيمان فرعون الذي

---

[٦٦] الفتوحات المكية: ج٣ص٤٣١.

خالف فيه أكثر علماء المسلمين كما سنتحدث عنه في الفصل السابع والأخير.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الشيخ محيي الدين يعتبر أنّ العرش، على أحد المعاني، هو المملكة ذاتها وليس فقط بمعنى السرير الذي يستوي عليه الملك،[67] وبالتالي فإنّ حملة العرش هم القائمون به فهم القوائم الأساسية التي تقوم عليها المملكة التي هي العالم الذي خلقه الله من أجلنا: ففي الحقيقة كلّ شخص منّا هو من حملة العرش ولكن تتفاوت المراتب والمهام تماماً كما أنّ كلّ ذرّة في البناء تحمله بقدر معيّن محدود ولكنّ الأعمدة الرئيسية هي التي تقوم بالعمل الأكبر، فحملة العرش الأساسيين هم ثمانية (يوم القيامة، كماقال الله تعالى في سورة ق [آية ١٧]، وهم اليوم أربعة، كما ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلّم[68]) ذكرهم الشيخ محيي الدين رضي الله عنه في الباب الثالث عشر "في معرفة حملة العرش" وهم إسرافيل وآدم وميكائيل وإبراهيم وجبريل ومحمّد ورضوان ومالك عليهم السلام، فيكون ما عداهم من الأنبياء ثم الأولياء من حملة العرش أيضاً ولكن على مستوى آخر ومرتبة مختلفة، ثم ينزل عنهم صالح المؤمنين وغيرهم من عامة الناس.

ثم يشير الشيخ رضي الله عنه في البيت الثاني من هذه القصيدة إلى التدرّج الطبقي بين الأولياء: فمنهم الأقطاب والأوتاد والأبدال، كما فصّله في الباب الثالث والسبعين من الفتوحات المكية. ثم يضيف الشيخ رضي الله عنه في البيت الثالث أن الزمان لا يسع إلا لواحد هو عينه! وهذه هي نظرية الجوهر الفرد التي يكاد يتفرّد فيها ابن العربي على الرغم من أن وحدة الوجود قد قال بها الكثير من العلماء والفلاسفة في الإسلام وعبر التاريخ في الحضارات المختلفة،[69] ولكن تفسير ابن العربي رضي الله عنه لهذه الرؤية هو تفسير فريد وبديع يصلح أن يكون أساسا لنظرية كونية تستطيع تفسير الكثير من المعضلات الفلسفية والفيزيائية التي نشأت من عدم تكامل النظريات الحديثة مثل النسبية وميكانيك الكم. وهذه الرؤية تعتمد على أساس أن الله سبحانه وتعالى يخلق العالم بشكل مستمر، والعالمُ في كل لحظة، وهي الزمن الفرد أو يوم الشأن، يتردد بين الوجود والعدم؛ فهو في أصله قابع في ظلمة العدم، ثم يخرجه الله إلى نور الوجود بشكل مستمر في كل زمن فرد، شخصاً شخصاً، لا يوجد شخصان معا في نفس الوقت. ونقصد هنا بالوقت الزمن الحقيقي وليس الزمن المشهود، ففي كل لحظة من الزمن الحقيقي هناك فقط جوهر فرد واحد يظهر للوجود ثم يتلوه جوهر غيره وهكذا فيكون العالم المتكثّر هو مجموع صور هذه الجواهر التي تظهر واحدا بعد واحد: حرام على الأدوار شخصان يوجد. فالله واحد، ولا ينتج عن الواحد إلا واحد، ولو نتج عنه الكثرة، فهي بالنظر إلى أحدية الزمن واحد، أي في كل زمن فرد ينتج شخص واحد، بمعنى جوهرٌ واحد أو جزء واحد من أجزاء العالم، ولذلك قال الله تعالى في سورة الرحمن: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ۝﴾، أي في شأن واحد، واليوم هنا هو الزمن الفرد

---

[67] الفتوحات المكية: ج١ص١٤٦، ٥٨٣.

[68] الفتوحات المكية: ج١ص١٤٨، ج٣ص١٨٤. وانظرأيضا في عقلة المستوفز: ص٤٣-٤٤.

[69] لم يذكر الشيخ محيي الدين كلمة "وحدة الوجود" أبدا ولم يقل بها على الشكل المعروف والمتداول، وإنما له رؤية خاصة في ذلك كما سنرى في الفصل السابع والأخير من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

وهو يعادل لحظة واحدة بالنسبة لنا.

ومعرفة الزمن هي المفتاحُ الأساسيُ لإدراك العالم الروحي وفتح عين البصيرة. يقول ابن العربي في الفتوحات المكية أن علم الزمان هو علم شريف منه يُعرف الأزل ومنه ظهر قوله عليه السلام "كان الله ولا شيء معه"، وهذا علم لا يعلمه إلا الأفراد من الرجال[70] وهو المعبّر عنه بالدهر الأول ودهر الدهور، وعن هذا الأزل وُجد الزمان وبه تسمّى الله بالدهر وهو قوله عليه السلام "لا تسبوا الدهر فإنّ الله هو الدهر".[71]

ومن يتحقّق في معرفة الزمان يخرج حقيقة عن الزمان ويحكم هو على الزمان بدلاً من أن يحكم الزمان عليه؛ فنحن أبناء الزمان لأننا نعيش فيه والمحقق أبو الزمان لأنه يجاريه، فلا تمرّ عليه اللحظات في غفلة أبداً! وهذا معنى قول ابن العربي في هذه القصيدة: أقابل محنّات الزمان، وليس ذلك بالأمر اليسير، ولذلك أضاف: بهمّة تذلّ لها السبع الشداد وتخمد. ولكن يعترف الشيخ رضي الله عنه أنه ليس في ذلك فضل ولا دعوى، بل الفضل من الله تعالى فهو الذي يؤيّده في الثبات على هذه المقامات العالية الرفيعة.

ثم يصرّح الشيخ في بقية القصيدة أن الفتح الذي حصل له، والعلوم التي أتى بها من هذا الفتح، لم يكن عن سلوك طريق المجاهدة كما هي العادة عند الصوفية وإنما عن طريق جذبة كما سنوضح ذلك بالتفصيل في الفصل الثاني إن شاء الله تعالى.

---

[70] الأفراد فئة من رجال الله خارجين عن دائرة القطب، ...

[71] الفتوحات المكية: ج١ ص١٥٦-١٥٧.

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الثاني

الصبح

والأصبغ وفترة شبابه وتنقله في بعض مصار الأندلس

١١٦٥/٥٦٠ - ١١٩٣/٥٨٩

زُوِّجتِ الأنفسُ أبدانها ... إذ أظهرَ الإنسانُ أعيانها

وأحكمَ الطبعَ بها شهوةٌ ... إذ أحكمَ الصانعُ بنيانها

أسكنه الرحمنُ في جنّةٍ ... يلاعبُ الحورَ وولدانها

أطافَ بالكأس وإبريقه ... رحمانُه عليه غلمانها

لمّا أتى عند كثيب الجمى ... يطلبُ للأبصارِ رحمانها

أنفُسُنا لو عَرفَت ذاتها ... لأقرأت بالجمع قرآنها

سبحانَ من حيّرها حِكمةً ... فيها فلا تعرفُ فرقانها[٢٢]

الخلاصة

وُلد الشيخ الأكبر محمد ابن العربي الحاتمي الطائي في مدينة مرسية شرقي الأندلس سنة ٥٦٠ للهجرة (١١٦٥ للميلاد)، وكان ذلك في عهد الخليفة العباسي المستنجد بالله، وكانت دولة المرابطين في الأندلس تلفظ أنفاسها الأخيرة لتحلّ محلّها دولة الموحّدين. كان أبو محمد يتبوأ منصباً رفيعاً عند ابن مردنيش سلطان مرسية، وعندما مات هذا السلطان وأخذ الموحدون إمارته رحل محمد مع أبيه وعائلته إلى إشبيلية عاصمة الأندلس آنذاك، وكان عمره عندئذ ثمانية سنين. وهناك في إشبيلية وفي قرطبة تلقى محمد

---

[٢٢] الديوان: ص٤١٥.

التعليم والتربية على أيدي مشاهير شيوخ الأندلس، وكانت تتهيأ له مكانة رفيعة في قصر السلطان مثل أبيه لولا أنه اتجه إلى طريق الزهد والتصوف. كان ذلك قبل أن يكمل العقد الثاني من عمره، وسرعان ما فُتح عليه بعلوم جمّة أدّت إلى شهرته التي عمّت بلاد الأندلس والمغرب حتى صار الشيوخ يقصدونه من كل حدب وصوب.

وقد قضى الشيخ الأكبر السنوات الأخيرة من هذه الفترة حتى سنة ٥٨٩ في السفر بين مدن الأندلس قاصدا شيوخ الطريق حتى يتعلم على أيديهم ويستفيد منهم ويفيدهم على حد سواء، وهو لم يبلغ بعدُ الخامسة والعشرين من العمر.

بزوغ شمس محيي الدين

لقد كان يوماً صيفياً جميلاً ذلك اليوم الذي وُلد فيه محمد. لم يكن المخاض حالة أمه فقط؛ لأن ولادته كانت حالة استثنائية في التاريخ بأسره، وكأن الدنيا وُلدت حبلى به. انتقل محمد في أصلاب الرجال أرباب الكرم من أرض النبوات في جزيرة العرب إلى الأندلس، جنة الله على الأرض. في ربوع تلك البلدة الجميلة على ضفاف نهر شقورة وفي يوم رحمة من أواسط شهر رمضان المبارك وُلد محمد بن علي ابن العربي بن محمد الحاتمي الطائي. في ليلة يوم الاثنين السابع عشر من شهر رمضان المبارك سنة ٥٦٠ للهجرة، الموافق ٢٦ تموز (يوليو) سنة ١١٦٥ للميلاد،[٣] حيث كان القمر قد بدأ يخلع عمامته البيضاء، وكانت شمس الصيف مقبلة على السهول والجبال تمنح نورها ودفأها للشجر والدواب والبشر والحجر. ولد هذا الطائي في مرسية شرقي الأندلس سليل أسرة عريقة معروفة بالعلم والتقوى والجود والسخاء والكرم؛ فجدّه الأعلى عبد الله الحاتمي، أحد قادة الفتوحات الإسلامية وهو أخو عديّ ابن حاتم الطائي، الصحابي الجليل الذي خاض حروب الردة وأوائل الفتوحات الإسلامية، وكان أبوه علي ابن العربي ذا منصب ومكانة كبيرة عند السلطان ابن مردنيش في مرسية وبعده عند سلاطين الموحدين في إشبيلية.

مرسية

لقد بدأت إذاً رحلة ابن العربي من المشرق، وانتهى شوطها الأول، بالاسم الباطن، في مُرسية، على ضفاف نهر شقورة، في جنوب شرقي الأندلس. هناك رأى محمد الضوء، وهناك أشرقت عليه أول شمس، وتنشّق أول نسيم. على الرغم من أنه لم يعش فيها سوى بضع سنوات من عمر طفولته، إلا أنّ مرسية لا شكّ كانت دائما تعيش في ذاكرته، حتى إن شمسيهما غابتا معاً، حين استولى عليها الإسبان سنة ١٢٣٩/٦٣٦، قبل

---

[٣] يقرر بعض الباحثين تاريخ ولادة ابن العربي على التقويم الميلادي أنه ١١٦٥/٧/٢٨ (كما يقول وليام جيتيك في الموسوعة الإيرانية) أو ٢٧-١١٦٥/٧/٢٨ (كما يقول ستيفن هرتنشتاين في "الرحمن المطلق: الحياة الروحية والفكرية لابن العربي"، ص٣٤)، ولكنني اخترت يوم ٢٦ لأنه يوم الثنين كما قررت معظم المصادر التي أرّخت ولادته أنه يوم الاثنين (أو ليلته) السابع عشر من شهر رمضان سنة ٥٦٠ للهجرة. تجدر الإشارة إلى أن التقويم الهجري العربي والإسلامي وكذلك ابن العربي نفسه يعتبر أن ليلة اليوم هي التي تسبق نهاره (انظر صفحة ٨ من كتاب أيام الشأن المطبوع في مجموعة رسائل ابن العربي، حيدر آباد، ١٩٤٨).

وفاته بقليل، وكانت يومئذ في يد أميرها أحمد بن محمود بن هود.

يقول ياقوت الحموي في "معجم البلدان" أن مُرْسية هي مدينة جميلة تقع في شرقي الأندلس من أعمال تُدمير اختطها عبد الرحمن بن الحكم وسمّاها تُدمير أسوة بتدْمُر الشام فاستمرّ الناس على اسم موضعها الأول، وهي ذات أشجار وحدائق محدقة بها، وبها كان منزل ابن مردنيش، وانعمرت في زمانه حتى صارت قاعدة الأندلس، وإليها يُنسب أبو غالب تمام بن غالب اللغوي المُرسي الذي صنف كتاباً كبيراً في اللغة هو كتاب "الموعب"، وغيره الكثير من أهل العلم والأدب.[٢٤] وكذلك من العلماء الذي أنتجتهم مرسية: شرف الدين أبو عبد الله محمد السلمي المحدث النحوي، وأبو العباس أحمد بن رشيق الأديب الكاتب، وأبو عامر أحمد بن عبد الملك المعروف بابن شهيد الأشجعي الشاعر الأديب (توفي ١٠٣٥/٤٢٦)، وأبو محمد عبد الله بن محمد الخشني الفقيه الحافظ (توفي ١١٣٢/٥٢٦)، وأبو الحسن علي بن إسماعيل المعروف بابن سيده الأندلسي المرسي اللغوي صاحب كتاب "المخصص"، وكتاب "المحكم في اللغة" وكتاب في شرح الحماسة، وأبو العباس أحمد المرسي، من أكابر الأولياء المتوفى بالإسكندرية سنة ١٢٨٧/٦٨٦، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي الإمام الحافظ، والكاتب الشاعر المؤرخ ابن الأبّار، وغيرهم الكثير.

ويقول الحميري في الروض المعطار:

> ومرسية على نهر كبير يسقي جميعها كنيل مصر، ولها جامع جليل وحمامات وأسواق عامرة، وهي راخية أكثر الدهر رخيصة الفواكه كثيرة الشجر والأعناب وأصناف الثمر، وبها معادن فضة غزيرة متصلة المادة، وكانت تُصنع بها البُسط الرفيعة الشريفة، ولأهلها حذق بصنعتها وتجويدها لا يبلغه غيرهم... ومرسية في مستو من الأرض على النهر الأبيض، ولها ربض عامرٌ آهلٌ، وعليها وعلى ربضها أسوارٌ وحظائر متقنة، والماء يشق ربضها، وهي على ضفة النهر، ويجاز إليها على قنطرة مصنوعة من المراكب تنتقل من موضع إلى موضع، وبها شجر التين كثير، وبها حصون وقلاع وقواعد وأقاليم معدومة المثال، ومنها إلى بلنسية خمس مراحل، ومنها إلى قرطبة عشر مراحل.[٢٥]

عائلة ابن العربي في مرسية

تماشيا مع الفتوحات الإسلامية هاجر الكثير من العرب إلى المغرب العربي والأندلس، ولا شكّ أن بني طيء أجداد ابن العربي كانوا من بين هؤلاء الناس وربما من بين الجنود الذين فتحوا الأندلس؛ حتى إن الكثير من الأوس والخزرج من سكّان المدينة المنوّرة هاجروا كلّيًا إلى الأندلس واستقرّوا هناك، ولم يعُد

---

[٢٤] معجم البلدان: رقم ١١١٣١.

[٢٥] الروض المعطار في خبر الأقطار: معجم جغرافي مع فهارس شاملة، تأليف محمد بن عبد المنعم الحميري، حققه إحسان عباس، مكتبة لبنان-بيروت، ١٩٨٤، ص٥٣٩.

لهم وجود يُذكر في المدينة.

ويَذكر المؤرخ حسين مؤنس في كتابه "فجر الأندلس" وفود طوالع العرب الأولى إلى الأندلس حينما أقبل "الحرّ بن يوسف الثقفي" إليها في ذي الحجة سنة ٩٧/٧١٦ بعد فتحها بخمس سنوات، واصطحب معه أربعمائة رجل فأقاموا في قرطبة وما حولها.[٧٦] ثم أقبلت القبائل العربية إلى الأندلس، فسكن في مرسية ربيعة جذام ودوس وغافق، وملكان وأفصي بن مضر وجميعهم من اليمن، فلا شكّ أن عائلة ابن العربي كانت منهم، ومن أجل ذلك يفخر الشيخ محيي الدين بنسبه اليمني كما رأينا في بداية الفصل الأول.

ويقول المقرّي في نفح الطيب:

> ومن أهل الأندلس من ينتسب إلى الأوس أخي الخزرج، ومنهم من ينتسب إلى غافق بن عكّ بن عدنان بن هزّان بن الأزد، ... ومن كهلان من ينتسب إلى مذحج، ومذحج: اسم أكمة حمراء باليمن، ... وطيء ابن أدد بن زيد بن كهلان، قال ابن غالب: بنو سراج الأعيان من أهل قرطبة ينتسبون إلى مذحج، ومنزل طيء بقبلي مرسية.[٧٧]

ينتمي ابن العربي إلى عائلة عريقة مشهورة بالعلم والأخلاق، وكانوا من المقرّبين إلى الأمراء والحكّام، غير أنه كما قلنا يصعب تتبع النسب بعد عبد الله الطائي، الجدّ الأعلى لابن العربي. ويبدو أنّ هذه الكنية كانت شائعة في المغرب العربي حيث يوجد الكثير من المشاهير بهذا النسب من غير أن يكونوا بالضرورة من نفس العائلة أو القبيلة. وقد تميّز اثنان فقط بهذا النسب (ابن العربي) هما شيخنا محيي الدين، والذي عادة ما يعرف بين علماء المشرق بابن عربي (من غير ألف لام التعريف)، والقاضي أبو بكر ابن العربي (مع ألف لام التعريف)، كما ذكرنا في المقدمة. وهذان العالمان الجليلان، مع أنهما عاشا في عصر واحد وفترات متقاربة زمانا ومكانا ولكنهما ليسا بالضرورة من عائلة واحدة. كما ويوجد غيرهما ممن عُرف باسم ابن العربي أو ابن عربي ولكن أقل شهرة، كما ذكرنا أيضاً في المقدمة. وربما يكون سبب اشتهار هذه الكنية يعود لكون المغرب بربريا في الأصل وعندما فتحه المسلمون العرب وسكنوا فيه كان هذا الاسم ميّزة لبعض الرجال منهم الذين ربّما سكنوا في منطقة بربرية في المغرب أو الأندلس فكان يقال لهم "العربي" لتميّزهم عن غيرهم بهذا الوصف. كما أننا نجد أن أغلب الذين عُرفوا بهذا اللقب إنما ينتمون إلى قبيلة طيء، فربما يكون بينهم قرابة بعيدة من جهة الجدود.

كان أبو محمد يتقلّد منصباً مهماً عند الأمير ابن مردنيش ثم بقي في خدمة سلطان الموحدين أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن واستمر كذلك حتى عصر أمير المؤمنين الثالث أبي يوسف يعقوب المنصور. ونحن لا نعرف بالتحديد ما هو هذا المنصب الذي كان يتولاّه أبو محمد ولكن على الرغم من حسن سيرة ملوك الموحدين مقارنة مع المرابطين وملوك الطوائف، إلا أنه ربما كان عليٌّ العربي يُلام لتوليه مثل هذا

---

[٧٦] فجر الأندلس، حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر-القاهرة، ١٩٥٩، ص٤٠٠.

[٧٧] نفح الطيب: ج١ص٢٩٤-٢٩٦.

المنصب والعمل في بلاط الملوك الذين ربما لم يكونوا محبوبين من قِبل الزهّاد الذين كان محمد ابن العربي يرافقهم؛ فكانوا كثيرا ما ينصحونه بترك منصبه والتفرّغ لنفسه كما سنرى بعد قليل.

في هذا الوسط المحب للعلم والعلماء نشأ محمد وترعرع، ومن صباه كان مرهف الحس والذوق، قوي العاطفة، غلاّب الوجدان، رحب الآفاق في الهمة والتطلع، فانطلقت روحه تبتغي أفقاً أعظم وأشمل من ألوان العلوم والمعارف التي ألِفها عامة العلماء في وقته على علوّ قدرهم.

فترة طفولته وصباه

لا نعرف الكثير عن الفترة الأولى من حياة محمد، إلا أنها لا شك كانت غنية بالمغامرات والرحلات الترفيهية، خاصة لكونه من عائلة غنيّة مقرّبة من الملوك. وهناك إشارات واضحة على أن الطفل محمدا كان هادئ الطبع خفيف الظل متوقداً، ذكي الفؤاد طيب النفس أنيساً، حلو الشمائل لطيف الروح بسيطاً، يكاد يمازج الأرواح لرقته وتشربه النفوس لعذوبته، ولقد بدت بوادر النبوغ على وجهه منذ نعومة أظافره. مضت سنيّ طفولته بسرعة بارقة وكأنما كان الكمال يدفعه إلى العلا على عجل، وتطلبه الحقائق الأول. غير أنه لم ينس حظه من اللهو والمرح لا سيما وقد كان أهله من الأغنياء وعنده الخدم والحشم، مع أن لهوه ومرحه كان لا يخلو من الدروس والعبر، كيف لا وهو الذي سيكون صاحب الوقت، يحكم على الوقت ويجري مع الأنفاس في مراقبة الله تعالى وتسبيحه وذكره!

كما أنه منذ صغره كان له ميول نحو أهل الله مع أنه هو نفسه لم يكن بعد يعرف طريق التصوف، ولكنه كان يدافع عن الصوفية الفقراء الذين كانوا كثيراً ما يتعرّضون للاضطهاد بسبب عدم قبول الفقهاء لهم والإنكار عليهم عند السلاطين، فكان محمد يعطف عليهم ويُؤويهم، وكان ذلك على الحقيقة سبب فتحه، فقد قال في روح القدس: "ولم أزل أبداً والحمد لله أجاهد الفقهاءَ في حقّ الفقراءِ السادة حقّ الجهاد وأذبُّ عنهم وأحمي، وبهذا فُتح لي!".[٧٨]

انتقالهم إلى إشبيلية

عندما بلغ محمد الثامنة من عمره ضاقت به مرسية كما لن تسعه الأندلس بعد حين، فانتقل مع عائلته في عام ١١٧٢/٥٦٨ إلى إشبيلية في جنوب غرب البلاد، وهي مدينة لا تختلف كثيرا عن مسقط رأسه، فهي أيضاً كثيرة البساتين والمنتزهات ذات طبيعةٍ خلاّبةٍ وجوٍّ جميل، ولكنها كانت مدينة كبيرة متعددة الأعراق والأديان يتنافس فيها الفلاسفة والعلماء والمفكرون، كما أنها كانت لا تخلو من النشاطات الفنية والعمرانية المتعددة.

لقد حصل هذا التحوّل بعد موت ابن مردنيش كما رأينا في الفصل الأول حيث انتهت المقاومة ضد دولة الموحدين في شرقي الأندلس وسيطر السلطان أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن على مرسية

[٧٨] روح القدس، تأليف الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي، مطبعة العلم، دمشق، ١٩٦٤، ص٦٨.

وبلنسية وذهب أبناءُ ابن مردنيش إلى إشبيلية لإعلان ولائهم كما أوصاهم أبوهم وأخذوا معهم بعض القادة والأمراء، ولا بدّ أن أبا محمد علي العربي كان معهم حيث انتقلوا إلى عاصمة دولة الموحدين إشبيلية. وهناك بقي أبو محمد مقربا من الأمير وكان يشغل أيضاً منصبا في بلاطه.

إشبيلية

وإشبيلية هي إحدى أعظم مدن الأندلس؛ كان أول من بناها هو الإمبراطور يوليوس قيصر، فيها نهر الوادي الكبير وهو نهر عظيم يمرّ خلالها. وهي مدينة معتدلة الهواء، حسناء الماء، وأهلها يعملون في التجارة. سكنت فيها أعداد كبيرة من النصارى في تسامح مع المسلمين، وتناكح المسلمون والنصارى، وأسلمت جموع من النصارى وصار أولادهم هم عامة سكان إشبيلية لاحقاً.

وفي عهد عبد الرحمن الداخل، في منتصف القرن الهجري الثاني، استحالت إشبيلية إلى إحدى مراكز الحضارة، و استلّمها الأمويُّون من بعده فحافظوا على التراث الحضاري، بل زادوا فيه من المباني وأوجُهِ الحضارة المختلفة. كانت إشبيلية أعظم حواضر الأندلس، وأمنعها حصوناً، وأكثرها سكاناً، وأصبحت مركزاً لحكومة الموحدين بعد أن ضعفت قرطبة العاصمة الأموية وبعد أن مرّت مرحلة التشتت وانتهى عصر أمراء الطوائف. وتوالت عليها حكومات متعددة؛ فتارةً كانت تحت طاعة الموحدين، وتارةً أخرى تخلع طاعتهم، إلى أن ألقت بمقاليدها عن رضىً واختيارٍ إلى الدولة الحفصية، وكانت دولة قوية فتيّة قامت في تونس، وامتدت إلى المغرب الأوسط، وقلصت نفوذ دولة الموحدين، وبدأت تحل محلهم.

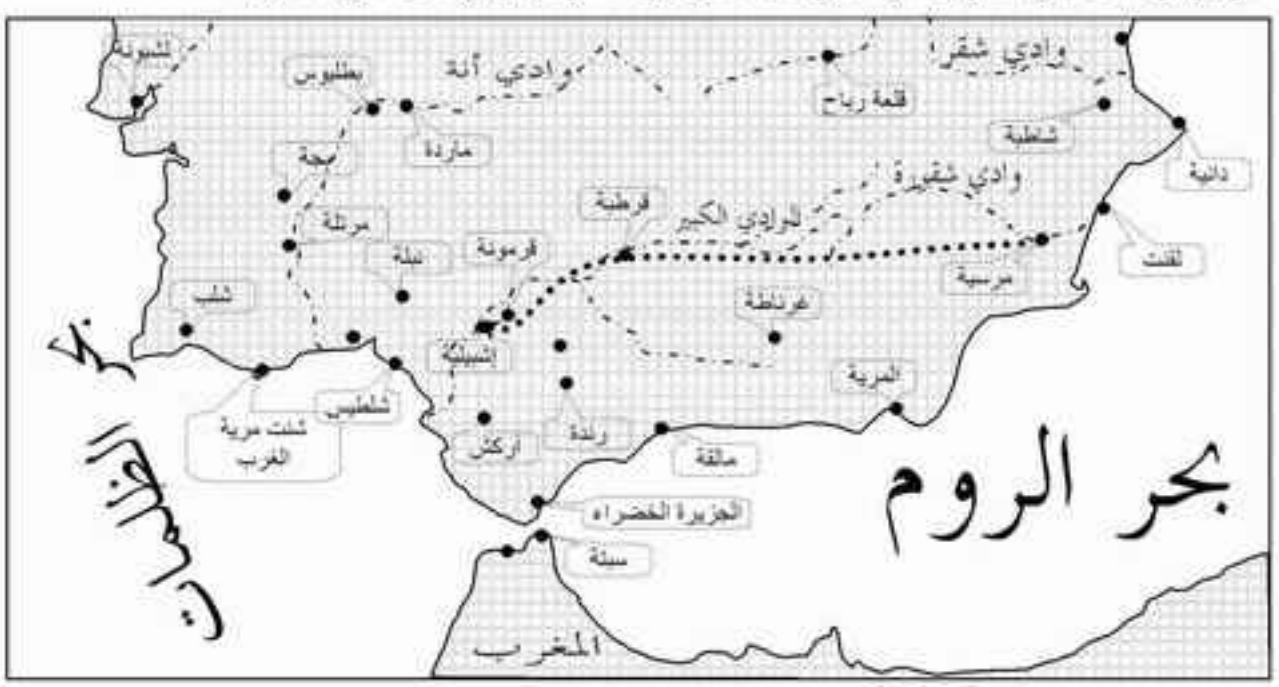

منطقة جنوب الأندلس: الخط الأحمر يمثل الطريق من مراكش إلى إشبيلية

ففي تلك المدينة المنبسلة تلقّى محمد تعليمه على أيدي مشاهير العلماء والأدباء في ذلك الوقت، وفيها أيضاً قضى سنيّ شبابه. وفي إشبيلية بدأت شهرته تملأ الآفاق حيث كان يطلب جميع العلماء المعروفين

ويدخل معهم في نقاشات واسعة معلّما أو متعلّما. وكثيرا ما كان مشاهير العلماء والفلاسفة يقصدونه ويطلبونه للتعلّم منه والتعرّف عليه كما حصل في لقائه الشهير مع الفيلسوف الشيخ ابن رشد، كما سنرى بعد قليل.

وكما رأينا في الفصل السابق فقد كان السلطان أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (١١٦٣/٥٥٨-١١٨٤/٥٨٠) عالما فقيها يحبُّ الفلسفة وعلوم الدين ويُجلُّ العلماء ويقدّرهم حيثُ وفّر لهم الجوّ المناسب وكان يجالسهم ويحضر نقاشاتهم مثل ابن طفيل وابن رشد وابن زهر وغيرهم، واستمر هذا الوضع في فترة حكم ابنه المنصور يعقوب بن يوسف (١١٨٤/٥٨٠-١١٩٩/٥٩٥). وعلى الرغم من اجتناب الشيخ ابن العربي للسلطان وحاشيته، ولكن لا شك أن السلطان كان يحبّه ويجلّه وقد عرض عليه منصبا وأن يزوّج أختيه لبعض الأمراء الموحدين كما سنرى في الفصل الثالث، وكذلك كان محمد الناصر بن يعقوب المنصور (١١٩٩/٥٩٥-١٢١٥/٦١١) يتفاخر به وبشهرته بعد أن رحل إلى مكة لكونه نشأ في الأندلس، كما سنرى لاحقا في الفصل الخامس.

الأمان والصدق (قصته مع حمر الوحش)

بعد انتقالهم إلى إشبيلية خرج محمد ذات يوم في رحلة صيد مع والده وغلمانه في منطقة بين قرمونة[٢٩] وبلمة بالقرب من إشبيلية وإذا بقطيع من حمر الوحش ترعى، وكان مولعا بصيدها. كان يسير مع حصانه وحده بعيدا عن الغلمان؛ ففكر في نفسه وجعل في قلبه أنه لا يريد أن يؤذي واحدا منها بصيد. ولمّا رآها حصانه هشّ إليها ولكنه مسكه عنها وهو يحمل رمحه بيده. ثم وصل إلى القطيع ودخل بينهم وربما مرّ سنان الرمح بأسنمة بعضها وهي ترعى؛ فما رفعت رأسها ولا خافت منه أبداً حتى اجتازها! ثم لمّا أعقبه الغلمان فرّت الحمر أمامهم من الخوف.[٣٠]

ولم يعلم محمد وقتها تفسير ما حدث من مثل هذا التصرف الغريب الغير مألوف من قِبل حمر الوحش هذه، غير أنه أدرك في وقت لاحق أن الأمان الذي كان في نفسه تجاههم سرى في نفوسهم فما عادوا يخافون منه. فأدرك أنه من أراد أن لا يخاف من أحد فلا يُخف أحداً، وإذا أمِن منك كلُّ شيء تأمن أنت من كل شيء، وأدرك أهمية الصدق وأثره حتى على الحيوان. كما أنه سيدرك لاحقا أنه ليس الإنسان فقط هو الذي يتّصف بالعلم والمعرفة بل جميع الحيوانات وحتى الجماد؛ كيف لا وكل شيء يسبّح بحمد الله، ولا يسبّح إلا من هو عالم بمن يسبّح!

---

[٢٩] وردت في معجم البلدان لياقوت الحموي (رقم ٩٥٥٤) قرمُونَيةُ: كورة بالأندلس يتصل عملُها بأعمال إشبيلية غربي قرطبة وشرقي إشبيلية قديمة البنيان غصّتْ على عبد الرحمن بن محمد الأموي فنزل عليها بجُنوده حتى افتتحها وخربها ثم عادت إلى بعض ما كانت عليه وبينها وبين إشبيلية سبعة فراسخ وبين قرطبة اثنان وعشرون فرسخاً وأكثر ما يقول الناس قرمونة.

[٣٠] انظر رواية ابن العربي لهذه القصة في الفتوحات المكية ج٤ص٥٤٠.

مرضه، وإنقاذه بسورة يس

بقدر ما يكون المرء موهوبا ومباركا وموفقا، بقدر ما تكثر أعداؤه ويزيد منافسوه الذين لا بدّ أن يحاولوا الإيقاع به ومحاصرته وتثبيطه عن الوصول إلى أهدافه النبيلة، فإما أن يغلبوه ويردوه على أعقابه وإما أن ينصره الله عليهم ويوفقه ويتمّ نعمته عليه فيخرجه من كل محنةٍ منتصراً وتزيده كل بليّةٍ قوةً وتصميماً، مع أنه يجب دائما اجتناب النزاعات وعدم الالتفات إليها لأنها إن لم تثنِ المرء عن أهدافه فسوف تؤخره.

فأما أعداء العالم الدنيوي فيسهل تجنّبهم واستيعابهم، وذلك بترك ما يتقاتلون عليه والزهد به فلا يكون هناك سبب للمنازعة. وهذا هو بالتحديد ما يجب فعله على كلّ من يريد دخول طريق التصوّف، وهذا هو ما فعله ابن العربي حين ترك المناصب وابتعد عن السلاطين وترك حبّ الشهرة للفقهاء الذين كثيراً ما كانوا يداهنون من أجل الحصول على قبول الحكام والوزراء لهم.

ولكن ثمة أعداء آخرون يتربصون بالمرء من كل جهة وهم لا يريدون منافسته في مال ولا جاه بل ربما يُغروه بهذه الأشياء ليثنوه عما هو في سبيله. وهؤلاء هم الشياطين والأرواح الشريرة، ونحن لا يمكننا أن ننكر وجودهم، رغم أن ذلك شيء لم يدخل بعد تحت سيطرة العلم الحديث ودراسته، ولكن الدين يفرض علينا الإيمان بذلك مع أننا نؤمن أنه في النهاية لا يضرّ ولا ينفع إلا الله سبحانه وتعالى. ولولا وجود مثل هذه الأرواح الشريرة ما أُمرنا بالحرز والاستعاذة وقراءة القرآن الكريم وخاصة بعض الآيات أو السور التي تتعلق بطرد هذه الأرواح والقضاء عليهم مثل المعوذات وآية الكرسي وسورة يس.

يروي ابن العربي أنه كان مرة مريضا جدا حتى إن من حوله اعتقدوا أنه يصارع الموت أو أنه قد مات حيث كان غائبا عن الوعي وكان يهلوس لشدة الحمّى. فيقول إنه كان يرى أشخاصا مرعبين قبيحيّ المنظر يحاولون أن يؤذوه، ولكن فجأةً ظهر له شخص قويٌّ ولطيفٌ وكان يستنشق الطيب من نَفَسه وصار هذا الشخصُ يدافع عنه حتى غلبهم جميعاً. فقال له محمد: من أنت؟ قال: أنا سورة يس، أنا حارسك. ثم ما لبث أن استعاد محمد وعيه وعافيته وإذا بأبيه يقف قربه وهو يبكي وكان قد انتهى لتوّه من قراءة سورة يس.[٨١]

وبذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد سخّر له أباه لإنقاذه من الموت بقراءة هذه السورة المباركة وهي قلب القرآن،[٨٢] فكانت هي حارسه من هذه الأرواح الشريرة التي كانت تحاول القضاء عليه.

عمّه عبد الله بن محمد ابن العربي الطائي وقصة توبته

يروي الشيخ محيي الدين قصة عمّه عبد الله وهو شقيق أبيه الذي كان في أواخر عمره في بداية العقد الثامن ولم يكن إذ ذاك يعتقد بالتصوف والزهد حتى هداه صبي صغير إلى هذا الطريق بسبب كلمة قالها له وهو في دكّان العطّار عندما جاء هذا الصبيُّ الصغير فطلب منه أن يعطيه قليلا من "الشونيز الأبيض"،

---

[٨١] الفتوحات المكية: ج٤ص٦٤٨، ط ١٣٢٩، وأيضاً: الوصايا، ص١٥٠.

[٨٢] جاء في سنن النسائي الكبرى (ج٦ص٢٦٥) أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال "ويس قلب القرآن لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له، اقرؤوها على موتاكم".

والشونيز هو الحبة السوداء ولا تكون أبداً بيضاء اللون. فاستهجن ذلك أبو محمد وضحك وقال للصبي إنني أضحك من شدة جهلك لأن الشونيز لا يكون أبيضاً. وهنا جاء جواب الصبي صاعقا ومؤثرا حيث قال له: إن جهلي بهذه الأمور لن يضرّني عند الله ولكن لهوك وغفلتك التي أنت فيها ستضرّك عنده حيث أنك لا تزال معرضا عنه رغم تقدمك في العمر. فأثر ذلك الكلام كثيرا في نفس الرجل المسن وكان ذلك سبب رجوعه إلى طريق الله، فكان يختم القرآن كل يوم ويهدي نصف ثوابه لهذا الصبي.[٨٣] فلما دخل طريق التصوف زهد في الدنيا وعاش بعد ذلك ثلاث سنوات بلغ خلالها مقامات عالية في الولاية، ثم مات وعمره ثلاث وثمانون سنة، وكان ذلك قبل دخول ابن العربي في طريق التصوف.

وبالإضافة إلى كتاب الدرة الفاخرة، فقد ذكر الشيخ محيي الدين قصة عمّه عبد الله في كتاب روح القدس حيث ذكر له أيضاً عدة كرامات مثل تنسمه ريح الجنة في الصباح واختفاء الأدرة الكبيرة التي أصيب بها عند موته بالإضافة إلى تنبؤه الدقيق بموعد موت ابنه وموته. يقول ابن العربي في روح القدس:

> ومنهم رضي الله عنهم أبو محمد عبد الله بن محمد ابن العربي الطائي وهو عمي شقيق والدي دخل هذه الطريق في آخر عمره على يد صبي صغير لم يدر ما هذا الطريق. دخله وهو في عمر الثمانين فلازم المجاهدة والسواحل حتى برع فيه. كانت له في كل يوم ختمة لازمة يهب نصفها لذلك الصبي الذي رجع على يديه؛ بصّره ذلك الصبي بالطريق.

وكذلك فيبدو أن عمه عبد الله كان صاحب من سيكون أحد شيوخه وهو أبو علي حسن الشكاز الذي سنذكره بعد قليل؛ فيقول الشيخ محيي الدين في روح القدس أنه كان يبيت عنده وهو صغير مع عمه وكان يخدمه.[٨٤]

بعض كرامات عمه عبد الله

ويقول الشيخ محيي الدين في الباب الرابع والعشرين من الفتوحات المكية أنّ عمّه كان من

---

[٨٣] بالإضافة إلى كتاب "روح القدس" كما سنقله أدناه، لقد ذكر الشيخ محيي الدين هذه القصة بالتفصيل في كتاب "الدرة الفاخرة" (انظر مؤلفات ابن عربي تاريخها وتصنيفها، تأليف عثمان يحيى، ترجمة أحمد الطيبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب-القاهرة، ٢٠٠١، ص٣٠٩-٣١٠) وهو لم يحقق بعد. ولقد أخذنا هذه الرواية من ترجمة رالف أوستين في كتاب صوفيو الأندلس، ص٩٩-١٠٠:

(Sufis of Andalusia: the Ruh Al-Quds & Al-Durrat Al-Fakhirah by Muhyiddin Ibn Arabi, R. W. J. Austin, New Leaf Distributing Company, 1988, p. 99-100).

انظر أيضاً: كتاب "البحث عن الكبريت الأحمر: حياة ابن العربي"، تأليف كلوديا عداس، ترجمه من الفرنسية للإنكليزية: بيتر كنغسلي، ص٢٠-٢١:

(Quest for the Red Sulpher, The Life of Ibn Arabi, Claude Addas, trans. Peter Kingsley, The Islamic Texts Society, 1993, p. 20-21).

و كتاب "الرحمن المطلق: ابن العربي فكره وحياته الروحية"، تأليف ستيفين هرتنشتاين، ص٣٨:

(The Unlimited Mercifier, The Spiritual Life and Thought of Ibn 'Arabi, Stephen Hirtenstein, Anqa Publ. Oxford, 1999, p. 38).

[٨٤] روح القدس: ص٦٢.

الرجال الذين تكون قلوبهم متعشّقة بالأنفاس الرحمانية حسّاً ومعنىً،[85] وهم رجال يدركون بالشمّ ما يدركه غيرهم بالحواس الأخرى. ولذلك يذكر الشيخ محيي الدين أن عمّه رحمه الله كان يجلس في البيت فيقول "طلع الفجر"، فيسأله محمد "من أين تعرف ذلك؟" فيقول: "يا بنيّ إن الله يوجّه ريحاً من تحت العرش تهبّ في الجنّة، فتخرج بريحها عند طلوع الفجر يشتمّها كلّ مؤمن في كل يوم."[86] وتجدر الإشارة إلى أنّ ذلك أيضاً من أحوال "نفس الرحمن" الذي يبدو أن أهل اليمن حصّلوا فيه الحظّ الوافر، كما ذكرنا في نهاية الفصل الأوّل.

ويذكر الشيخ محيي الدين أيضاً عن عمّه أنه أصابته أدرة[87] كبيرة، فكان يجعلها أمامه مثل المخدة الكبيرة. وكان له ولدٌ خلفٌ قد أقرح قلبه فدعا عليه فمرض وكان يسأل الله أن يقدّمه أمامه وحينئذ يموت، فمات ابنه قبله فدفنه وقال: "الحمد لله إني أعيش بعده أربعة وأربعين يوما وأموت." فعاش كما قال ومات.

ويصف الشيخ محيي الدين موته فيقول:

> ولما كانت ليلة وفاته قعدنا عنده بعد صلاة العشاء وهو مستقبلٌ القبلة فوجد بعض راحة وأدرته قد عظمت، فقال لنا استريحوا وارقدوا، فأخذنا مضاجعنا، فقمت إليه في وقت السحر فوجدته قد فاضت نفسه رحمه الله تعالى وما شاهد أحد موته. وطلبنا تلك الأدرة فلم نجد منها شيئا، فقلنا لعلها كانت رياحا وبقي الجلد، فإذا به مثل جميع الناس ما عنده شيء فعجبت أن ستره الله وأخفاه.[88]

وفي الفتوحات المكية أيضاً يروي الشيخ الأكبر أن عمه عبد الله كان كثيرا ما ينشده هذه الأبيات المؤثرة للسميسر:[89]

زمـــانٌ يمـــرُّ وعـــيشٌ يمـــرّ ودهـــرٌ يكـــرُّ بمـــا لا يـــرّ
ونفـــسٌ تـــذوبُ وهـــمٌّ ينـــوبُ ودنيـــا تنـــادي بـــأن لـــيس حـــرّ

ويقول الشيخ محيي الدين أن عمّه كان عمره من وقت رجوعه إلى هذا الطريق إلى أن مات ثلاثة أعوام خاصة، ومات وهو في الثالثة والثمانين. ويضيف أنه "مات قبل أن أدخل هذا الطريق".[90]

من هو هذا الصبي

وكما بيّن ستيفين هرتنشتاين في تعليقه على هذه القصة[91] أنه من غير المستبعد أن يكون هذا

---

[85] الفتوحات المكية: ج١ ص١٨٥.

[86] روح القدس: ص٦٣.

[87] الأدرة هي انتفاخ في الجلد يحصل بسبب تجمع بعض السوائل.

[88] روح القدس: ص٦٣.

[89] الفتوحات المكية: ج٤ص٥٥٠. والسميسر شاعر شهير من شعراء الأندلس.

[90] روح القدس: ص٦٣.

[91] الرحمن المطلق: ص٣٨.

الصبيّ هو ابن العربي نفسه لأن الشيخ محيي الدين كثيرا ما يتحدث عن نفسه باستعمال ضمائر الغائب. وهذا أمرٌ مستساغٌ جداً لأن هذا الوصف ينطبق عليه كونه كان لا يزال بعد "صبيا صغيرا لم يدر ما هذا الطريق" وكذلك فإن تعليق الشيخ أبي محمد عبد الله الطائي وضحكه على سؤال الصبي عن "الشونيز الأبيض" يشير إلى أنه كان يمازحه مما يعني أنه يعرفه جيدا وربما اعتاد على ممازحته من قبل. وكذلك فإن جواب الصبي القاسي ربما لم يكن فقط ردّا على ضحك الشيخ من جهل الصبي بأسماء الأعشاب الطبية، ولكنه ربما كان يعرف عنه أكثر من ذلك بكثير وأنه كان رغم تقدم سنّه لا يزال يلهو ويعرض عن الله تعالى. فكل ذلك يعني أن هناك علاقة قوية بين الصبي والشيخ عبد الله الطائي، ولا يُستبعد أبدا أن يكون هذا الصبي هو محمد ابن أخيه. وهذا أيضاً يتطابق مع كون عبد الله الطائي قد مات قبل أن يدخل محمد الطريق وأن هذه القصة قد حصلت قبل وفاته بثلاث سنوات، وسنجد بعد قليل أن الشيخ محيي الدين قد دخل الطريق في عمر مبكر جدا ربما لا يُجاوز الخامسة عشر وأنّه كان يرافق أهل الله منذ صغره.

فترة اللهو والجاهلية

كما هو الحال مع أغلب الناس، وخاصة من تربّى في ظل الغنى والسلطان، فلا بدّ من قضاء أوقات في اللهو مع الأصحاب في حفلات الغناء والطرب، فبقدر ما ينغمس الإنسان في ذلك يبتعد عن الإسلام شيئا فشيئا حتى يخرج الإسلام من قلبه وعقله، وبعد ذلك إما أن يتوب ويعود للطريق القويم، وإما أن ينساه الله كما نسي هو ذكر الله، فيصبح من الخاسرين.

ويبدو أن ابن العربي قد مرّ في مثل هذه الظروف لبعض الوقت في فترة من مرحلة شبابه، لأنه يذكر مثل ذلك في رسالة روح القدس التي خصصها لمحاسبة نفسه وعرضها على الرجال الصالحين من الصحابة والأولياء، وتفنيد دعاويها وردّها إلى الحق. فيقول وهو يخاطب نفسه في رسالة روح القدس التي وجّهها من مكة المكرمة إلى صديقه التونسي عبد العزيز المهدوي: كم مرة سمعتُ آية من كلام الله فثقلت عليّ ومجّتها، وكم والله رنّة شعر سمعتها فاستعذبتها! أخاف والله يا وليّي على نفسي وعلى من هو مثلي أن يُنقل اسمه من ديوان المؤمنين إلى ديوان من قال فيهم الحقّ جلّ وعلا ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٤٥﴾ [الزمر].

ثم يقول إنه قد اتصف بهذا في السهرات التي كانت تُقام مع أصحابه على ما يبدو، فكان يستمع إلى القوّال (أي المغني أو المنشد) وهو يقول زخرف القول وغروره فيهتزّ ويقوم ويقول شاباش! هذا والله حسن! ويضيف أنه لا يزال الملعون شيطانه يرقّصه كما يفعل صاحب القرد بقرده، فإذا أخذ حاجته منه صفعه صفعةً فأضجعه فيقوم من قلّ فلاحه فيغطيه برداءٍ حتى يخلي سبيله ويقوم وهو يهنّئ نفسه وقد عزّاه الملأ الأعلى في دينه وفيما مضى من عقله. ثم في آخر الليل ينام هو وأصحاب السوء مثله وقد تعبوا من كثرة ما رقصوا فلا يكادون أن يأخذوا قليلا من النوم إلا والصبح قد أذّن، فيقومون ويتوضؤون بأقل ما ينطلق عليه اسم

الوضوء ثم يذهبون إلى المسجد، هذا إذا وُفّق لذلك، وإلا فالأغلب على من هذه حالته أن يصلي في داره بـ"إنا أعطيناك الكوثر" وسورة الفاتحة كيفما كانت، والقنوت ليس بواجب فيتركه وينقرها مخففة جداً، ثم يضطجع إلى وقت الضحى ليستريح!

فيذكر الشيخ الأكبر ذلك ويقول لنفسه: "هيهات والله ما كانت طريق الله هكذا." ولكن هكذا كانت حالته في جاهليته هو وبعض أصحاب السوء. ويضيف أنه إن كان موفقا أكثر من غيره توضأ وخرج إلى المسجد وإذا دخل فيُقال له: قد صلى الناس! فلا يجد لذلك حزنا ولا يكترث بل يقيم الصلاة ويصلي وكأنه ما فاته شيء، لاهيَ القلب مسروراً، ويقول بلسان الحال: "قد حصل لي أجر الجماعة بقصدي وأراحني الله من تطويل الإمام."

ثم يضيف في رسالة روح القدس أنه بعد ذلك كان إن أدرك الصلاة مع الإمام فهو في تلك الصلاة على أحد وجهين: إذا كان مستريح القلب من كل شيء، يتذكر ليلته البارحة وحسنها وما كان أحسن ذلك القوّال وشعره، ويقضي صلاته كلها في هذا حتى لا يدري ما صلى الإمام ولا بما صلى، وإنما رأى الناس يفعلون شيئا ففعل مثلهم: ركعوا فركع وسجدوا فسجد ووقفوا فوقف وجلسوا فجلس. أما إذا كان تُعِباً نُعِباً فيترقّب عند ذلك فراغ الإمام وتثقل عليه القراءة ويغتاب الإمام في نفسه ويمقُته ويقول: "ما أثقله قد افتتح سورة الحشر أو الواقعة، هلاّ كان قنع بالانفطار والفجر، والنبي صلّى الله عليه وسلّم قد أمرنا بالتخفيف، هذا خلافُ السنّة، ويحوقل ويهلل، كل ذلك لغير الله."[٩٢]

فيبدو أن مثل هذه الحال قد مرّت على ابن العربي، وربّما هذه هي الفترة التي يقول إنه قد مرّ بها. والفترة في التصوّف هي مرحلة لا بدّ منها ولكنها قد تطول وقد تقصر وقد ينكص فيها المرء على عقبيه فلا تقوم له بعد ذلك قائمة. وتحصل الفترة عادة بعد الفتح كما سنرى بعد قليل.

تلقيه العلم وتعلمّه القرآن الكريم

أغلب الظن أن ابن العربي قد تلقى تعليماً خاصّاً وليس هناك ما يدلّ على أنه كان يذهب إلى المدارس المعروفة آنذاك، وهذا أمرٌ طبيعي نظرا لكون عائلته من العائلات الغنية والمقرّبة من السلطان كما ذكرنا أعلاه. ويبدو أيضاً أنه لم يكن في بداية الأمر بارعا في شيءٍ من ضروب العلوم والآداب التي كانت تُدرس في وقته، بل أنه لم يكن يحسن القراءة أمام الشيوخ، حيث أنه كان يَهابُهم ويرتعد بين أيديهم، ولعل ذلك كان بسبب شدّة تأدّبه معهم ومعرفته علوّ مقاماتهم. فقال وهو يروي قصةً حدثت معه عند شيخه وأستاذه أبي يعقوب يوسف بن يخلف الكومي الذي سنتكلم عنه بعد قليل، وكان ذلك في بدايته عند دخوله طريق التصوف أو ربّما قُبيل ذلك:

> ... ولم أكن قط رأيت رسالة القشيري ولا غيرها ولا كنت أدري لفظة التصوف على ماذا تنطلق! فركب (الشيخ يوسف) يوماً فرسه وأمرني وآخر من

---

[٩٢] روح القدس: ص٢٠-٢١.

أصحابه أن نخرج إلى المنتيار -وهو جبل عال على فرسخ من إشبيلية- فخرجت أنا وصاحبي عند فتح باب المدينة وفي يد صاحبي رسالة القشيري وأنا لا أعرف ما القشيري ولا رسالته، فصعدنا الجبل فوجدناه سبقنا وغلامُه ممسكٌ فرسه، فدخلنا مسجداً في أعلى ذلك الجبل فصلينا واستدبر القبلة وأعطاني الرسالة وقال لي اقرأ! فلم أقدر أن أضمّ كلمةً إلى أخرى والكتاب يسقط من يدي من الهيبة، فقال لصاحبي اقرأ! فأخذه صاحبي وقرأه وتكلم عليه الشيخ، فلم نزلْ كذلك حتى صلينا العصر.[93]

ولكن ابن العربي سرعان ما بدأ بالانتظام في حلقات التعليم والدروس عند أكابر الشيوخ المشهورين في عصره أمثال أبي بكر بن خلف الذي كان يعلّم القرآن بالقراءات السبع بكتاب "الكافي" والذي كان يحدّث به عن ابن مؤلفه عن أبيه محمد بن شريح (٣٩٢/١٠٠١-٤٧٦/١٠٨٣)،[94] وكذلك أبي القاسم الشرّاط القرطبي (توفي ٥٨٦/١١٩٠). ذكر ذلك أحمد بن محمّد المقرّي المالكي في كتابه "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" في ترجمة ابن العربي:

... قرأ القرآن على أبي بكر ابن خلف بإشبيلية بالسبع وبكتاب الكافي، وحدّثه به عن ابن المؤلف أبي الحسن شريح بن محمد بن شريح الرّعيني عن أبيه، وقرأ أيضاً السبع بالكتاب المذكور على أبي القاسم الشرّاط القرطبي، وحدّثه به عن ابن المؤلف، وسمع على أبي بكر محمد بن أبي جمرة كتاب التيسير للدّاني عن أبيه عن المؤلف، وسمع على ابن زرقون[95] وأبي محمد عبد الحق الإشبيلي الأزدي وغير واحدٍ من أهل المشرق والمغرب يطول تعدادهم.[96]

وكذلك قرأ ابن العربي الحديث والأدب على مشاهير العلماء والأدباء كما سنرى ذلك بعد قليل.

---

[93] روح القدس: ص٤٩-٥٠.

[94] محمد بن شريح بن أحمد بن محمد بن شريح هو أبو عبد الله الرُّعينيّ الإشبيليّ المقرىء، مصنّف كتاب الكافي، وكتاب التّذكير، وخطيب إشبيلية، رحل وحجّ، وسمع من أبي ذرّ الهرويّ، وأجاز له مكّيّ القيسيّ، وسمع بمصر من: أبي العبّاس بن نفيس، وأبي القاسم الكحّال؛ وبإشبيلية من: عثمان بن أحمد القيشطاليّ. وقرأ بالروايات بمكّة على القنطريّ، وبمصر على ابن نفيس. روى عنه: ابنه الخطيب أبو الحسن شريح. انظر: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي-بيروت، ١٩٨٩، حوادث وفيات ٤٧١-٤٨٠، ص١٧٩. انظر أيضاً: الذهبي، "سير أعلام النبلاء": ج١٨ص٥٥٤.

[95] هو الشيخ الفقيه الإمام المقرئ أبو عبد الله محمد بن أبي الطيب سعيد بن أحمد بن سعيد بن عبد البر بن مجاهد ابن زرقون الأنصاري الأندلسي الإشبيلي المالكي. أجاز له عام اثنين وخمس مئة أبو عبد الله أحمد بن محمد الخولاني راوي الموطأ، وفيها ولد، وتفرد في وقته عنه. وسمع بمراكش من أبي عمران موسى بن أبي الليد، فتفرد عنه أيضاً. انظر أيضاً: الذهبي، "سير أعلام النبلاء": ج٢٢ص٣١١-٣١٢. ابن الأبار، "التكملة": ج٢ص٦١٦-٦١٧. ابن العماد، "شذرات الذهب": ج٥ص٩٦.

[96] نفح الطيب: ج٢ص١٦١-١٦٢.

موقفه من المذاهب

ورغم أن هؤلاء الشيوخ الذين تتلمذ الشيخ الأكبر على أيديهم وتعلّم منهم كانوا في أغلبهم ينتمون إلى المذهب المالكي الذي كان شائعا في الأندلس في ذلك الحين، إلا أنه هو نفسه لم يكن يفضّل أيّ مذهبٍ فقهيٍّ محدّد، وذلك لأنه على الحقيقة يقول بأن باب الاجتهاد مفتوح وأنه يجوز الأخذ من جميع المذاهب التي قال بها العلماء وليس بالضرورة اتّباع مذهب معيّن بذاته، وهذا شيء منعه الكثير من الفقهاء الذين أوجبوا الالتزام بمذهب معين. وهذا الواقع يدحض قول الذين ينسبونه إلى ابن حزم ويقولون أنه ظاهريّ المذهب كما ذكرنا في نهاية الفصل الأول. ولكن على الرغم من أن الشيخ الأكبر يقبل بجميع المذاهب ويجيز الانتقال بينها طلباً للرُخص إذا لزم الأمر، إلا أنه يندب إلى ويحثّ على الجمع بينها للخروج من الخلاف واتّخاذ الأحوط.[97]

ولقد أفرد الشيخ رضي الله عنه جزءاً كبيراً من الفتوحات المكية لتبيين الأحكام الفقهية الخاصة في أركان الإسلام، فذكر في كل حكم الآراء المختلفة ثم بيّن الرأي الذي يقول به هو من غير أن يُخطّئ بقيّة الآراء، ثم زاد فوق كل ذلك توضيح المعاني الباطنية لهذه الأحكام.[98]

ولقد أوضح رضي الله عنه أن أهل الكشف لا يحكمون بآرائهم بل بما كشف الله لهم، لأن أهل الكشف لهم الاطلاع على جميع المذاهب كلّها والنّحلِ والمِللِ والمقالاتِ في الله اطلاعاً عاماً لا يجهلون منه شيئا. فما تظهر نِحلةٌ من منتحل ولا مِلّةٌ بناموسٍ خاصٍّ تكون عليه ولا مقالةٍ في الله أو في كونٍ من الأكوان، ما تناقض منها وما اختلف وما تماثل، إلا ويعلم صاحب الكشف من أين أُخذت هذه المقالةُ أو الملّةُ أو النِحلةُ فينسبها إلى موضعها ويقيم عذر القائل بها ولا يخطّئه ولا يجعل قوله عبثاً، فإن الله ما خلق سماءً ولا أرضاً وما بينهما باطلاً ولا خلق الإنسان عبثاً بل خلقه ليكون وحده على صورته: فكلُّ مَن في العالم جاهلٌ بالكلّ عالمٌ بالبعض، إلا الإنسان الكامل[99] وحده فإنّ الله علّمه الأسماء كلها وآتاه جوامع الكلم.[100]

ولقد ورد في صحيح البخاري (كتاب الأقضية) عن عمْرو بن العاص أنّه سمع رسول اللهِ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: "إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ، ثُمَّ أَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ." فلذلك لا ينبغي لنا أن نطعن في حكم مجتهد لأن الشرع الذي هو حكم الله قد قرّر ذلك الحكم، فهو شرع الله بتقريره إيّاه، وهذه مسألة يقع في محظورها أصحاب المذاهب كلهم لعدم استحضارهم لذلك مع كونهم

---

[97] الفتوحات المكية: ج٣ص٣٣٦، وكذلك: ج١ص٤٠٥، ٥٤٥-٥٤٨، ج٢ص٥٥٩، ج٣ص٦٩، ١٤٢، ٤١٣، ٥٠٢،

[98] انظر ذلك في الأبواب ٦٨-٧١ من الجزء الأول من الفتوحات المكية.

[99] الإنسان الكامل هو القطب الذي تدور عليه أفلاك الوجود وهو اصطلاح صوفي يستخدمه ابن العربي للإشارة إلى العقل الأوّل الذي خلقه الله على صورته، وهو أيضاً سيّدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم ولكن كذلك يمكن للأنبياء والأولياء أن يصلوا إلى مثل هذه المرتبة من الكمال فيكونون كالإنسان الكامل. انظر مثلا الفتوحات المكية: ج١ص٦٣٩، ج٢ص١٠٣، ١٢٣، ١٢٩، ١٤٩، ١٦٩، ٣٥٤، ٣٨٣، ٣٩٠، ٣٩٥، ٤٦١، ٤٦٨، ٤٦٩، ولقد صنّف الشيخ عبد الكريم بن إبراهيم الجيلي كتاب الإنسان الكامل في معرفة الأوائل والأواخر، وله طبعات عديدة منها طبعة بتحقيق أبي عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضه، دار الكتب العلمية-بيروت، ١٩٩٨.

[100] الفتوحات المكية: ج٣ص٣٩٨.

عالمين به، ولكنهم غفلوا عن استحضاره، فأساؤوا الأدب مع الله في ذلك حين فاز بذلك الأدباء من عباد الله؛ فمن خطّأ مجتهداً بعينه فقد خطّأ الحقّ فيما قرّره حكما.[101] ومن هنا نجد الفرق الكبير بين انتقاد ابن العربي وأتباعه لمن خالفهم بالرأي وبين انتقاد ابن تيمية وأتباعه لابن العربي وأمثاله كما سنرى في الفصل الأخير.

شيخه المقرئ محمد بن خلف بن صاف اللخمي (إشبيلية، ١١٨٢/٥٧٨)

في سنة ١١٨٢/٥٧٨، عندما كان عمره ثمانية عشر سنة، واظب محمد على حضور دروس القرآن الكريم مع الشيخ المقرئ محمد بن خلف اللخمي (توفي ١١٨٩/٥٨٥)[102] حيث تعلم منه القراءات السبع، وقد كان معروفا بالعلم والتربية، ومنه تعلم بعض القراءات التي لم تكن مشهورة كلفظ بعض الأعراب "الزراط" بدلا من "الصراط" أو "السراط":

> سمعت شيخا، وكنت أقرأ عليه القرآن يقال له محمد بن خلف بن صاف اللخمي، بمسجده المعروف به بقوس الحنية بإشبيلية من بلاد الأندلس سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، فقرأت السراط بالسين لابن كثير، فقال لي: سأل بعض ناقلي اللغة بعض الأعراب كيف تقولون صقر أو سقر؟ فقال له ما أدري ما تقول ولكنني أظنك تسأل عن الزقر! فقال فزادني لغة ثالثة ما كنت أعرفها.[103]

مقرئٌ ومربٍّ

ويبدو أن الشيخ اللخمي كان صوفيا أيضاً وكان بارعا في التربية كما هو بارع في القراءات، فكان مثالا يعلّم تلاميذه الأدب وحفظ السرّ حتى عن الأصدقاء.[104]

والأهم من هذا أنه كان يعلّم تلاميذه التفكّر في معاني الآيات وعدم الاكتفاء بقراءتها على وجه السرعة بهدف الانتهاء من الختمة في وقت قصير. يروي عنه الشيخ الأكبر أنه كان يقصّ عليهم قصةً لطيفةً حول هذا المعنى، وهي القصة المشهورة حول الشاب الذي كان يقرأ القرآن كاملا كلّ ليلة حتى طلب منه شيخه أن يتخيّل أنه يقرأ القرآن عليه؛ فعندئذ ما استطاع أن يقرأ أكثر من نصف القرآن، وهكذا تدرّج معه فقال له: تخيّل أنك تقرؤه على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الذي أُنزل عليه القرآن، ثم بين يدي جبريل الذي نزل به على قلب محمد صلّى الله عليه وسلّم؛ فما استطاع أن يزيد على عدة آيات. ثم قال له الشيخ يا ولدي "تب

---

[101] الفتوحات المكية: ج١ص٣٤٨.

[102] لترجمة هذا المقرئ انظر: غاية النهاية في طبقات القراء، شمس الدين أبي الخير محمد بن محمد بن الجزري، عني بنشره ج. برجستراسر، مكتبة الخانجي-القاهرة، ١٩٣٢: ج٢ص١٣٧-١٣٨، وكذلك: الذيل والتكملة على كتاب الموصول والصلة، لابن عبد الملك المراكشي، أكاديمية المملكة المغربية-المغرب، ١٩٨٤: ج٤ص١٨٨، وكذلك: التكملة لكتاب الصلة، لابن الأبار، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري-القاهرة، ١٩٨٩، رقم ٨٢١.

[103] الفتوحات المكية: ج١ص٣٣١.

[104] الفتوحات المكية: ج٢ص٣١٤، ج٤ص٥٥٠.

إلى الله وتأهّب واعلم أن المصلي يناجي ربه وإنك واقفٌ بين يديه تتلو عليه كلامه فانظر حظك من القرآن وحظّه وتدبّر ما تقرأه، فليس المراد جمع الحروف ولا تأليفها ولا حكاية الأقوال، وإنما المراد بالقراءة التدبّر لمعاني ما تتلوه فلا تكن جاهلاً!" فعندئذ لم يستطع الشاب أن يكمل الفاتحة لأنه لا يستطيع أن يقول "إيّاك نعبد" لأنه يخاف أن لا يصدق وهو يعلم أنه لمّا يُخلص بعدُ العبادة لله تعالى.[١٠٥]

فلا شك أن مثل هذه القصص ذات الطابع الصوفي كان لها تأثيراً كبيراً على روح ابن العربي الشاب الذي كان الصدق عنده ملكةً كما رأينا في الأعلى عندما ذكرنا قصته مع حمر الوحش.

صاحباه محمد الخياط وشقيقه أحمد الحريري (إشبيلية)

إن مِن أوائل مَن يذكرهم الشيخ محيي الدين من أصحابه وإخوانه وشيوخه الذين تعلم منهم ومعهم هما الأخوان الشقيقان محمد الخيّاط وأحمد الحريري وكانا يقطنان في مكان ليس قريبا عن مسكن ابن العربي في إشبيلية، ولكنه كان يزورهما كثيرا ويتعلم منهما، وكان مولعا بشكل خاص بالشيخ محمد الخياط، الذي كان أكبر منه عمرا. وقد صحبهما محمد حتى سنة ١١٩٤/٥٩٠ حيث ارتحلا إلى المشرق بهدف الحج ثم استقر الأمر بهما في مصر حيث سيلتقي بهما الشيخ الأكبر لاحقا.

أبو عبد الله محمد الخياط

وقد تأثر ابن العربي بشكل خاص بالشيخ محمد الخياط كثيراً كما يذكر ذلك في كتاب روح القدس وهو يذكر إخوانه الذين عاشرهم واستفاد منهم، فيقول عنه أنه رجع إلى الطريق قبل أخيه بزمن طويل وكانت له والدة وكان باراً بها، رضي الله عنه، ولزم خدمتها حتى ماتت. وقد غلب عليه الخوف حتى إنه إذا صلّى سُمع لقلبه دويٌّ على بعد. وكان سريع الدمعة، غزيرها، طويل الصمت، دائم الحزن، كثير الفكرة، شديد التأوّه، لا تراه أبداً إلا مُطرقاً ضارباً بعينه الأرض، لا يمازح أحداً ولا يعاشره، بريءٌ من المداهنة، قويٌّ في المناصحة، لا يستحي في الحق من أحد، ولا تأخذه في الله لومة لائم، لا يُداري ولا يُماري، ابتلي بالفقر والضرّاء فصبر، له شأن عجيب وهمّة رفيعة.

ثم يضيف الشيخ الأكبر فيقول:

> كنت أتعشق به وأنا صغير وكان إذا دخل المسجد هابه كلُّ من رآه؛ ما عاينته قطّ يكلّم أحداً مبتدئا، ولا يجيب إذا تكلم إلا في ضرورة. يحفظ دينه حفظا ما تمنّيت من كلّ من رأيت أن أكون مثله إلا هو. وآخيته لما رجعت إلى هذه الطريقة وفرح بي ولازمته وانتفعت بآدابه وأخذت من خُلقه؛ كان يحتمل الأذى ويكفّ جفاه. (كان) صدوقَ الرؤيا، كثيرَ النجوى، ليلهُ قائم ونهارهُ صائم، لا

[١٠٥] الفتوحات المكية: ج١ص٤٢٥.

تجده فارغاً قط، يحبّ العلم وأهله.[106]

فمن الواضح أن الشيخ محمد الخياط كان له تأثيرٌ كبيرٌ على الشيخ محيي الدين، وربما هو من دعاه مع أخيه أحمد أبي العباس إلى طريق التصوّف فلبّوا وكانوا مجموعةً إخواناً في الله، ويقول الشيخ محيي الدين أنهم كانوا يجتمعون هو ومحمد الخياط وأخوه أحمد وشخص رابع لا يذكره، ولكن ربما يكون هذا الشخص الرابع هو الشيخ أبو جعفر العربي الذي تربّى الشيخ محيي الدين على يديه، كما سنرى أدناه، وكان العربي يزور محمداً الخياط في بيته والتقى مع محمد ابن العربي هناك. فيذكر الشيخ محيي الدين هذه الأيام عندما كان يكتب رسالة روح القدس في مكة سنة ١٢٠٣/٦٠٠ ويقول إنه كان مع هذه المجموعة على السواء في كل ما يُفتح به عليهم وأنه لم ير أيّاما قط في عمره أحسن من تلك الأيّام.[107]

الفعل بالهمّة

وكان محمد الخياط ذا همة عالية يستطيع أن يحقق بها ما يريد، وهو ما يسمّيه الصوفية: "الفعل بالهمّة"، وهو أمرٌ عامٌّ في الآخرة ولكنه نادرٌ جداً في الدنيا وقد يكون للأولياء ولغير الأولياء. فإن أهل الجنة يقولون للشيء الذي يريدونه كن فيكون؛[108] فلا يتوهّمون أمراً ما ولا يخطر لهم خاطرٌ في تكوينِ أمرٍ ما إلا ويتكوّن بين أيديهم. وكذلك أهل النار لا يخطر لهم خاطرُ خوفٍ من عذاب أكبر مما هم فيه إلا تكوّن فيهم أو لهم ذلك العذاب وهو عين حصول الخاطر، فإن الدار الآخرة تقتضي تكوين العالم عن العالم لكن حساً وبمجرد حصول الخاطر والهمّ والإرادة والتمنّي والشهوة، كل ذلك محسوسا. وليس ذلك في الدنيا لكل أحد وقد يكون في الدنيا لغير الولي، كصاحب العين، ولكن ما يكون بسرعة تكوين الشيء بالهمّة في الدار الآخرة وهذا في الدار الدنيا نادر شاذ كقضيب البان وغيره، وهو في الدار الآخرة للجميع.[109]

فيذكر الشيخ محيي الدين عن صاحبه محمد الخيّاط أنه كان بين منزله ومنزلهم بعدٌ كثيرٌ فمرة بَعد

---

[106] روح القدس: ص٥٩-٦٠.

[107] روح القدس: ص٥٩.

[108] ورد في ذلك العديد من الأحاديث التي تتكلم عن صفة أهل الجنة، ولعلّ هذا أيضاً معنى قول الله تعالى عنهم في سورة ق: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝﴾. انظر أيضاً في الفتوحات المكية: ج١ص٨٤، ج٢ص١٥٧، ٤٤٠، ٤٤١، ج٣ص٢٩٥. ولقد وضعنا لصوّرا لكيفيّة حصول ذلك بناءً على نموذج الجوهر الفرد لابن العربي الذي درسناه في الفصل السادس والسابع من الأطروحة التي سنعيد كتابتها باللغة العربية كما وعدنا إن شاء الله تعالى. فيبدو أن العالم الأخروي (سواء في الجنة أو في النار) سيكون ذا أربعة أبعاد حيث بدأ الخلق بالملائكة الذين خلقهم الله من نور (بُعد واحد أو جهتين؛ لقوله تعالى في سورة مريم: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝﴾) ثم الجن الذين خلقهم الله من نار (بُعدين أو أربعة جهات لقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ۝﴾) ثم الإنس وهو عالمنا ذا الأبعاد الثلاثة (أو الجهات الست) ثم الآخرة التي يبدو أنها ستكون ذات أربعة أبعاد. فكما أن تخيّلاتنا اليوم هي في الحقيقة ذات بعدين وهي من عالم الجنّ فستكون تخيّلاتنا في الآخرة ذات ثلاثة أبعاد وهي من العالم المادّي. والله أعلم.

[109] انظر الباب ٤٧ من الفتوحات المكية (ج١ص٢٥٥)، وسيأتي ذكر قضيب البان في الفصل الخامس.

أذان العشاء وجد الشيخ محيي الدين في خاطره أمرين متناقضين الأول الانزعاج إلى الوصول إلى صاحبه محمد الخيّاط والثاني الرجوع إلى منزله، فحار كيف يجمع بين الخاطرين وكان يعمل على أوّل الخاطر،[110] فذهب إليه مسرعا ودخل عليه فوجده واقفا في وسط الدار وهو مستقبلٌ القبلة وأخوه أحمد يتنفّل فسلّم عليه، فتبسّم وقال له: "ما الذي أبطأ بك؟ قلبي متعلق بك. هل عندك شيء؟ جاءنا فقيرٌ يُقال له عليٌّ السلاوي وما عندنا شيء." وكان ذلك سبب تعلّق قلبه به لأنه يعلم أنه يملك المال وهو ينفق على الفقراء. فأخرج محيي الدين من جيبه خمسة دراهم ودفعها له، ثم رجع إلى بيته مسرعا.

وهكذا أيضاً كان محمد الخياط يخدم الفقراء بنفسه ويؤثرهم بالطعام واللباس وكان رحيما عطوفا رؤوفا شفيقا يرحم الصغير ويعرف شرف الكبير، يعطي كل أحد حقه، له الحق على الناس وليس لأحد عليه حق إلا الله.[111]

أبو العبّاس أحمد الحريري

ويبدو كما ذكرنا أن أحمد كان أصغر من أخيه محمد الخياط، وربما كان هو من عمر محيي الدين وهذا ما جمع بينهما ابتداءً وربما عن طريق أحمد تعرّف ابن العربي على أخيه محمد. ويصف الشيخ محيي الدين صديقه أحمد وصفا جميلا فيقول إنه جمع الفضائل، واجتنب الرذائل، عرف الحقّ فلزمه، وكُشف له عن السرّ فكتمه، هو ممن يُنادَى من وراء حجاب.[112] قويّ المجاهدة، كثير المساعدة، وطيّء الأخلاق، حسن المعاشرة، سمح الخليقة، موافقٌ فيما يرضي الله، مخالفٌ لما لا يرضي الله. لزم الاسم فسما،[113] وعمّر ذكره كل أرضٍ وسما. تراه كأنه ذاهل، سريع الحركة كأنه مطلوب بثأر، يخضع تحت وارد الأسرار، كثير المكاشفة.

ثم يضيف الشيخ محيي الدين أن أحمد أبا العباس كان يُخاطب في سرّه (وهو نفس معنى قوله أنه كان ينادى من وراء حجاب) فكانوا عندما يتناقشون في مسألة يغيب عنهم ثم يرجع فيخبرهم بوجه من وجوه المسألة التي هم فيها.

وقد فارق الشيخ محيي الدين الأخوين أحمد ومحمد عند ترحاله وهُما أيضاً سافرا معا إلى مصر فسكنا فيها فترةً وصادف وجودهما هناك مجاعة عامة حدثت في مصر كما سنتكلم عنها في الفصل الرابع، وهناك مرض محمد الخياط فلزم أخوه أحمد خدمته إلى أن مات في مصر حيث التقيا بالشيخ الأكبر هناك عندما كان متجها نحو مكة سنة ١٢٠١/٥٩٨، وأرادا الذهاب معه للحج ولكن مرض محمد الخياط منعهما من

---

[110] العمل على أول الخاطر مفتاح للفلاح، وهو أن تترك الفكر والتردد وتنتبه لما يوقعه الله في قلبك من الخواطر فتعمل على أساسها. ولقد ذكرنا ذلك بالتفصيل في كتاب سلوك القلب فليراجع هناك.

[111] روح القدس ص٥٩-٦١.

[112] انظر قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝﴾.

[113] لزم الاسم أي الذكر، أي ذكر اسم الله تعالى.

ذلك.[114]

أمّه الترابية وأمّه الروحية

لا نعلم الكثير عن الأم "الترابية" لابن العربي، لأنه لا يذكرها كثيراً في كتبه، إلا أنها كانت أيضاً من أسرة عريقة وذلك كما سنرى بعد قليل أن خاله يحيى بن يغان (أو: يوجان) كان ملك تلمسان في تونس كما أن خاله الثاني وهو أحد أجداد أمه هو التابعي الشهير أبو مسلم الخولاني الذي كان مقرّبا من معاوية ابن أبي سفيان.

لقد كان اسم أمه "نور"، وهي التي ولدته وربّته في مرسية وإشبيلية. ولكن ابن العربي يركّز دائما على البنوّة الروحية، فكما أننا نحن جميعا أبناءَ سيّدنا آدم عليه السلام بالجسد، فنحن أبناءُ سيّدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم بالروح، وحتى آدم عليه السلام فهو ابنه بالروح. فابن العربي يؤكد في الباب الحادي عشر من الفتوحات المكية الذي وضعه بعنوان: "في معرفة آبائنا العلويات وأمهاتنا السفليات" أن: "كل مؤثِّر أب وكل مؤثَّر فيه أم".[115] ولقد وضع ابن العربي نظرية شاملة في هذا النكاح الروحي أو المعنوي يفسّر على أساسها بنية العالم وتركيبه.[116]

فقد ذكر ابن العربي أن أمه نور كانت تأتي معه لزيارة أمه الروحية فاطمة القرطبية بنت ابن المثنّى، التي سنذكرها بعد قليل، والتي كانت تقول لها: "يا نور هذا ولدي وهو أبوك فبُرّيه ولا تعقّيه".[117] ويتبين من هذا كيف أن ابن العربي كان في الحقيقة مثالا لأمّه تقتدي به، كما كانت فاطمة القرطبية –وكان عمرها خمسا وتسعين سنة– مثالاً له يقتدي بها، وهذا معنى الأبوّة والبنوّة الروحية.

وكذلك عندما عُرج به إلى السماء روحيا كما سنرى في الفصل الثالث كان عندما يريد أن يدخل منزلا يقرع بابه فيطلب الحاجبُ تعريفه فيقول له الملكُ المرافق له: إنه محمد بن نور، فيعرّفه باسم أمه كما يفعل الذين يتعاملون مع الأرواح.[118]

مدحه للأنصار

لقد أرجع بعض الباحثين[119] نسب والدة ابن العربي إلى البربر معتبرا أن خاله يحيى ابن يغان بربريا لأنه كان ملك تونس قبل ابن العربي ببضعة عقود، كما سنذكر قصته بعد قليل. ولكن ذلك لا يبدو صحيحاً لأن خاله الآخر عربي من العراق وكذلك فقد صرّح ابن العربي أن أمّه تنسب إلى الأنصار الذين نصروا رسول الله

---

[114] روح القدس ص٥٩-٦١.

[115] الفتوحات المكية: ج١ص١٣٨.

[116] الفتوحات المكية: ج٣ص٤٣٠.

[117] الفتوحات المكية: ج٢ص٣٤٨.

[118] الفتوحات المكية: ج٢ص٦٢٠.

[119] الرحمن المطلق: ص٣٣، ٢٥٢.

صلّى الله عليه وسلّم في أول بعثته، وله في ذلك قصيدة جميلة نظمها في مدح الأنصار من غير رويّة ولا تفكير وذلك عن أمرٍ من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أتاه عن طريق رؤيا مبشرة رآها يحيى ابن الأخفس في أثناء إقامته في دمشق، وذلك في قصة طويلة ذكرها الشيخ الأكبر في "الفتوحات المكية" وكذلك في "الديوان الكبير"، وسنذكرها في الفصل السادس إن شاء الله تعالى، وهو يقول في هذه القصيدة، بعد قوله "وكانت أمي تنسب إلى الأنصار":[120]

إنّـــي امـــرؤٌ مـــن جملـــةِ الأنـــصارِ فـــإذا مـــدحتهمُ مـــدحتُ نجـــاري

خاله التابعيّ أبو مسلم الخولاني

ذكر الشيخ الأكبر في كتبه قصة اثنين من أخواله وكانا عالمين صوفيين زاهدين، فيقول في حديثه عن طائفة الزهاد عن خاله أبي مسلم:

> كان خالنا أبو مسلم الخولاني رحمه الله من أكابرهم؛ كان يقوم الليل فإذا أدركه العياء ضرب رجليه بقضبانٍ كانت عنده ويقول لرجليه أنتما أحق بالضرب من دابتي، أيظن أصحاب محمد صلّى الله عليه وسلّم أن يفوزوا بمحمد صلّى الله عليه وسلّم دوننا! والله لأزاحمنّهم عليه حتى يعلموا أنهم خلّفوا بعدهم رجالاً.[121]

ولكن أبا مسلم الخولاني هذا لم يكن شقيق أمه بل ربما أحد أجدادها لأن الشيخ الأكبر ذكر أيضاً في "روح القدس" أثناء وصفه لحال الشيخ أبي محمد عبد الله الباغي الشكاز، الذي سيأتي ذكره، فقال عنه: "لم أر له شبيها إلا أبا مسلم الخولاني التابعي."[122] ثم ذكر نفس الوصف أعلاه. وبالتالي فإن خاله هذا هو التابعي المعروف عبد الله بن ثوب وأصله من العراق من البصرة، وقد التقى بعمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان بينهما قصة سنرويها بعد قليل. ذكره ابن سعد في الطبقات الكبرى:

> أبو مسلم الخولاني واسمه عبد الله بن ثوب وكان ثقة وتوفي في خلافة يزيد بن معاوية. أخبرنا مسلم بن إبراهيم قال حدثنا هشام الدستوائي قال حدثنا قتادة أن كعبا لقي أبا مسلم الخولاني فقال له: من أين أنت يا أبا مسلم؟ قال: من أهل العراق. قال: من أي العراق؟ قال: من أهل البصرة.[123]

وذكر النويري في "نهاية الأرب":

> وممن أسلم من خولان أبو مسلم الخولانيّ العابد، واسمه عبد الله بن ثوب،

---

[120] الفتوحات المكية: ج١ص٢٦٧-٢٦٨.

[121] الفتوحات المكية: ج٢ص١٨، وكذلك: ج١ص١٠٩.

[122] روح القدس: ص٦٩-٧٠.

[123] الطبقات الكبرى، لابن سعد، دار بيروت للطباعة والنشر-بيروت، ١٩٨٥: ج٩ص٤٥١.

ولم ير رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وإنما قدم المدينة بعد وفاته، وله خبر عجيب مع الأسود العنسيّ، نذكره في أخباره في خلافة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه (انظر هذه القصة أدناه).[124]

بعض كرامات أبي مسلم

وكان أبو مسلم مقربا من معاوية بن أبي سفيان، وله أخبار كثيرة ذكرها الذهبي في سير أعلام النبلاء،[125] وفي تاريخ الإسلام[126] وغيرهم. ويبدو واضحا من كل هذه القصص أن أبا مسلم الخولاني كان من الأولياء أصحاب الكرامات؛ ولقد اشتهرت قصته مع الكذّاب الأسود العنسيّ الذي ادّعى النبوة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وقد روى الكثير من المؤرخين تلك القصة، فقال ابن عبد البرّ في "الاستيعاب":

> أبو مسلم الخولاني العابد. أدرك الجاهلية وأسلم قبل وفاة النبي صلّى الله عليه وسلّم ولم ير رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وقدم المدينة حين قُبض رسول الله صلّى الله عليه وسلّم واستُخلف أبو بكر. فهو معدودٌ في كبار التابعين عداده في الشاميين اسمه عبد الله بن ثوب وقيل: عبد الله بن عوف والأول أكثر وأشهر. كان فاضلاً ناسكاً عابداً وله كرامات وفضائل روى عنه أبو إدريس الخولاني وجماعة من تابعي أهل الشام. ومن نوادر أخباره وكراماته ما حدثنا عبد الوارث بن سفيان حدثنا قاسم ابن أصبغ قال: حدثنا أحمد بن زهير قال: حدثنا عبد الوهاب بن نجدة الحوطي حدثنا إسماعيل بن عياش قال: أخبرنا شرحبيل بن مسلم الخولاني أن الأسود ابن قيس بن ذي الخمار تنبأ باليمن فبعث إلى أبي مسلم فلما جاءه قال له: أتشهد أني رسول الله؟ قال: ما أسمع. قال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. قال أتشهد أني رسول الله؟ قال: ما أسمع. قال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. فردّد ذلك عليه، كل ذلك يقول له مثل ذلك. قال فأمر بنار عظيمة فأجّجت ثم ألقي فيها أبو مسلم فلم تضره شيئاً! قال: فقيل له: انفه عنك وإلا أفسد عليك من اتبعك. قال فأمره بالرحيل، فأتى أبو مسلم المدينة وقد قبض رسول الله صلّى الله عليه وسلّم واستُخلف أبو بكر. فأناخ أبو مسلم راحلته بباب المسجد ودخل المسجد وقام يصلي إلى سارية، فبصر به عمر بن الخطاب فقام إليه فقال ممن الرجل؟ قال:

---

[124] نهاية الأرب في فنون الأدب، تأليف شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر-القاهرة، ١٩٦٤: ج١٨ص٨٢.

[125] الذهبي، "سير أعلام النبلاء": ج٤ص٧-١٤.

[126] الذهبي، "تاريخ الإسلام": عهد الخلفاء الراشدين (ص٥٣٩-٥٤٠)، حوادث وفيات ٦١-٨٠ (ص٢٢، ص٢٩٢-٢٩٨).

من أهل اليمن.[127] قال: ما فعل الرجل الذي أحرقه الكذاب بالنار؟ قال: ذلك عبد الله بن ثوب. قال: أنشدك بالله أنت هو؟ قال: اللهم نعم. قال: فاعتنقه عمر وبكى ثم ذهب به حتى أجلسه فيما بينه وبين أبي بكر، وقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في أمة محمد صلّى الله عليه وسلّم من فعل به كما فعل بإبراهيم خليل الله عليه السلام.[128]

خاله الملك الزاهد يحيى بن يغان

وأما خاله يحيى بن يغان فقد كان ملك تلمسان في تونس (الآن الجزائر) ولكنه ترك ملكه وماله وزهد في الدنيا على يد شيخ زاهد من علماء تونس إثر نصيحة فيها كلام مؤثر بلغ من نفسه أشد مبلغ:

كان بعض أخوالي منهم قد ملك مدينة تلمسان يقال له يحيى بن يغان. وكان في زمنه رجل فقيه عابد منقطع من أهل تونس يقال له أبو عبد الله التونسي، كان بموضع خارج تلمسان يقال له العُبّاد. كان قد انقطع بمسجد يعبد الله فيه وقبره بها يزار. فبينا هذا الصالح يمشي بمدينة تلمسان بين المدينتين أقادير والمدينة الوسطى إذ لقيه خالنا يحيى بن يغان ملك المدينة في خَوَله وحَشَمه. فقيل له هذا أبو عبد الله التونسي عابد وقته. فمسك لجام فرسه وسلّم على الشيخ فردّ عليه السلام، وكان على الملك ثياب فاخرة. فقال له يا شيخ: هذه الثياب التي أنا لابسها: تجوز لي الصلاة فيها؟ فضحك الشيخ. فقال له الملك: بمَ تضحك؟ قال من سُخف عقلك وجهلك بنفسك وحالك: ما لك تشبه عندي إلا بالكلب يتمرّغ في دم الجيفة وأكلها وقذارتها، فإذا جاء يبول يرفع رجله حتى لا يصيبه البول. وأنت وعاءٌ مليءٌ حراماً وتسأل عن الثياب ومظالم العباد في عنقك! قال فبكى الملك ونزل عن دابته وخرج عن ملكه من حينه ولزم خدمة الشيخ. فمسكه الشيخ ثلاثة أيام[129] ثم جاءه بحبل فقال له: أيها الملك قد فرغت أيام الضيافة قم فاحتطب. فكان يأتي بالحطب على رأسه ويدخل به السوق والناس ينظرون إليه ويبكون. فيبيع ويأخذ قوته ويتصدق بالباقي ولم يزل في بلده ذلك حتى درج ودفن خارج تربة الشيخ وقبره اليوم بها يزار.[130] فكان الشيخ إذا جاءه الناس يطلبون أن يدعو لهم يقول لهم التمسوا

---

[127] أي أنه قدم من اليمن.

[128] الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لأبي عمر يوسف بن عبد البر المعروف بابن عبد البر النمري، دار نهضة مصر للطبع و النشر-القاهرة، ١٩٨٠: ج٤ص١٧٥٧-١٧٥٩.

[129] وذلك حق الضيافة.

[130] وكما سنرى فإن ابن العربي سوف يزوره سنة ٥٩٠ أثناء زيارته لصاحبه عبد العزيز في تونس، وكذلك سنة ٥٩٨.

الدعاء من يحيى بن يغان: فإنه ملك فزهد[131] ولو ابتليت بما ابتلي به من الملك ربّما لم أزهد.[132]

ولقد توفي يحيى بن يغان قبل ولادة ابن العربي بحوالي ربع قرن وسوف يزوره الشيخ محيي الدين عندما يذهب إلى تونس حيث يوجد قبره هناك. وإذا كان يحيى بن يغان من البربر وليس هناك صلة نسب وثيقة بينه وبين خاله الآخر أبي مسلم الخولاني، فمن الممكن أن يكون عليّ العربي أبو محيي الدين قد تزوّج بامرأة من البربر وهي تكون خالته امرأة أبيه وليس أمّه لأنّ أمّه نور من الأنصار كما رأينا أعلاه. وبذلك فإن الشيخ محيي الدين يعتبر أن يحيى بن يغان خاله، لأنه أخو خالته امرأة أبيه. والاحتمال الآخر هو أن يكون هناك قرابة وثيقة بين يحيى بن يغان، وإن كان من البربر، وخاله أبي مسلم، وذلك لأن فتح بلاد المغرب وتونس قد تمّ في مرحلة مبكّرة من التاريخ الإسلامي وتقاطعت الصلات بين البربر وبين العرب وتداخلت الأنساب.

الفقير الزاهد أبو محمد عبد الله القطان (إشبيلية/قرطبة)

ولقد كان الشيخ محيي الدين يعطف على الفقراء والزهّاد الذين كانوا غالبا ما يتعرضون للإهانة من قِبل الأمراء والوزراء بسبب معارضة الفقهاء لهم. فكان الفقهاء غالباً ما يداهنون الوزراء ويعينونهم على ظلمهم، الأمر الذي لا يمكن لأهل طريق الله أن يفعلوه أو أن يسكتوا عنه فيحصل الخلاف. وهذا ما حصل مع الشيخ أبي محمد عبد الله القطان الذي كان يردّ على كلام السلاطين ولا يخشى في الله لومة لائم مهما عرّض نفسه للقتل أو للسجن. ولقد ذكر الشيخ الأكبر قصة عبد الله القطان في رسالة "روح القدس" وهو من أوائل الذين استفاد منهم في الطريق، فقال إنه كان من المفتوح عليهم في القرآن: لا يتكلم إلا بالقرآن ولا يرى غيره، ولم يكتب كتابا، وكان يقول في جماعة من المؤلفين رآهم بمدينة قرطبة: "مساكين أصحاب المصنّفات والتآليف ما أطول حسابهم، في كتاب الله مَقْنع وفي حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم". وكان يصدع بالأمر لا تأخذه في الله لومة لائم، يردُّ كلام السلاطين في وجوههم أقبح الردّ، له صولةٌ يرمي من شاء بالحق ولا يبالي. عرّض بنفسه للقتل من كثرة سبّه لأفعال السلاطين وما هم عليه من مخالفة الشريعة. وكان يحافظ على صاحبه، لم يتنعم قط ولا جمع بين درهمين. وكان يقول: عجبت لمن يطلب ما يركب وهو لم يشرع في شكر ما أكل وما لبس. وكان لا يزيد على الحاجة شيئاً في مأكله وملبسه، وكان قاصما للجبّارين ما تفوته غزوة قطّ في الروم راجلا بغير زاد.[133]

---

[131] يقول بعض الصوفية أنه لا يكون الزهد الحقيقي إلا للغني الذي يزهد فيما يملك، وأما الفقير فماذا يزهد! ولكن في ذلك خلاف بين أهل الله الذين "اختلفوا في الفقير الذي لا ملك له هل يصح له اسم الزاهد أو لا قدم له في هذا المقام، فمذهبنا أن الفقير متمكن من الرغبة في الدنيا والتعمّل في تحصيلها ولو لم يحصل، فتركه لذلك التعمّل والطلب والرغبة عنه يسمى زهداً بلا شك" (الفتوحات المكية: ج٢ص١٧٧).

[132] الفتوحات المكية: ج٢ص١٨. وانظر أيضاً نفس القصة في "محاضرة الأبرار": ج٢ص١١٤.

[133] روح القدس: ص٧٢.

القبض على الشيخ القطّان

ويروي الشيخ محيي الدين أن السلطان بعث إلى عبد الله القطان مرة أعوانه ليقتلوه فأخذه الأعوان ودخلوا به على الوزير فأقعد بين يديه. فقال له الشيخ القطان: يا ظالم يا عدو الله وعدو نفسه، فيما وجّهت؟ فقال الوزير: قد أمكن الله منك، ما تعيش بعد هذا أبدا! فقال له الشيخ: لا تقرّبُ أجلاً ولا تدفع مقدوراً، كلُّ ذلك لا يكون، وأنا والله أشهد جنازتك. فقال الوزير لوزعته: اسجنوه حتى أشاور السلطان في قتله. فسُجن تلك الليلة فانصرف وهو يقول: عجباً لم يزل المؤمن في سجن وإنما هذا بيت من بيوت السجن. فلمّا كان في اليوم الثاني جلس السلطان وأخبره الوزير بقصّة الشيخ وكلامه فأمر به فحضر بين يديه فرأى رجلا دميم الخِلقة لا يُؤبه له وما أحدٌ من أهل الدنيا يريد له خيراً وهذا كلّه لقوله الحق وإظهار معايبهم وما هم عليه من الجور والفساد. فقال له السلطان بعدما سأله عن اسمه ونسبه: أتحفظ توحيدك؟ فتلا عليه من القرآن بتقاسيمه فتعجّب الملك وانبسط له إلى أن دخل معه في المملكة وشأنها. فقال له السلطان ما تقول في ملكي هذا؟ فضحك! فقال له مم تضحك؟ فقال منك: تسمّي الزمان الذي أنت فيه مُلكاً وتسمي نفسك مَلِكاً! أنت كمن قال الله تعالى فيه ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝﴾ [الكهف]. إنما كان الملك اليوم الذي يصلّى اليوم بنارها ويجزي بها، وأما أنت فرجل عُجنت لك خبزة وقيل لك كُلها. ثم أغلظ عليه في القول بكل ما يكرهه ويغيظه وفي المجلس الوزراء والفقهاء، فسكت السلطان وخجل وقال: هذا رجل موفّق! وسأله أن يجلس معهم. فقال الشيخ القطّان: لا، فإن مجلسك مغضوب ودارك التي تسكنها أخذتموها بغير حقّ ولولا أني مجبور ما دخلت هنا؛ حال الله بيني وبينك وبين أمثالك. فأمر له السلطان بأعطية وعفاه في نفسه؛ فردّ له الأعطية وقبل العفو وخرج. فأمر السلطان أن تدفع إلى أهله.

ثم يقول الشيخ محيي الدين أنه ما مضى زمن قليل إلا والوزير قد مات وخرج أبو محمد وحضر جنازته وقال: بررت في قسمي. ويقول ابن العربي أيضاً أنه كان يصيح ويرفع صوته أمام أرباب الدولة ويقول: هؤلاء الفجّار بغوا في الأرض ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝﴾ [البقرة].[١٢٤]

استضافته في بيته ونصيحته لأبيه

فكان محمد يحب هؤلاء الفقراء ويعطف عليهم ويصاحبهم ويخدمهم حتى يستفيد منهم. وقد استضاف يوما هذا الشيخ الزاهد الفقير عبد الله القطان إلى بيته وطاعمه هو وأبوه، ولكن الشيخ لم يستطع السكوت عن الحق حتى في بيت أبي محمد علي العربي، الذي كان كما ذكرنا آنفا من أتباع السلطان. فمرّة استدعى محمد الشيخ القطان إلى بيته في الليل ليبيت عنده، فلما أخذ مجلسه جاء والد محمد رحمه الله،

[١٢٤] روح القدس: ص٧٠-٧٢.

فلما دخل سلم عليه، فلما صلّوا العشاء وقدّم محمد الطعام وقعدوا يأكلون وانضم لهم والده يغتنم بركة الشيخ القطان، فردّ إليه الشيخ وجهه وقال: "يا شيبة منحوسة أما آن لك أن تستحي من الله؟ إلى متى تصحب هؤلاء الظلمة؟ ما أقل حياءك؟ أأمنت من الموت أن يأتيك وأنت على شرّ حالة؟ أما لك في ابنك هذا موعظة: شاب صغير في شهوته قمع هواه وطرد شيطانه وعدل إلى الله تعالى يصاحب أهل الله، وأنت شيخ سوء على شفا حفرة من النار؟" فبكا والد محمد واعترف بحاله وتعجّب محمد من ذلك.[135]

ويبدو أن استضافته للشيخ القطان قد حصلت قبيل دخوله لطريق التصوف لأن القطان وصفه هنا بكلمة "شاب صغير في شهوته، قمع هواه وطرد شيطانه" فربّما كان ذلك في عمر يقارب الخامسة عشر أو قبيل ذلك بقليل أو بعده بقليل. وهذا يدعم ما قرّرناه أعلاه أن الشيخ محيي الدين كان يميل إلى التصوف ورجاله قبل أن يلتزم معهم بمدة ليست بقليلة.[136]

لا شكّ أن مصاحبة عبد الله القطان قد تركت في نفس ابن العربي أثرا عميقا. وسوف يبقى ابن العربي وفيّاً لهذا الشيخ يذكره دائما بالخير، وسنرى في الفصل القادم كيف أنه سيزوره مرة أخرى في قرطبة بعد أن يعود من رحلته الطويلة إلى مدينة فاس في المغرب ويرفقته صاحبه عبد الله بدر الحبشي الذي سيرافقه في جميع أسفاره. وبدر الحبشي كان عبدا عند أبي الفتوح الحرّاني ثم أطلقه فالتزم الشيخ محيي الدين جميع حياته حتى توفي، وسوف نتكلم عنه بالتفصيل لاحقا، ولكننا سنلاحظ أن الشيخ محيي الدين يحاول دائما أن يعرّف صاحبه بدرا على جميع الشيوخ الذين التقى بهم بما فيهم عبد الله القطّان.

دخوله الطريق (~ ١١٨٤/٥٨٠)

لقد كان ينتظر محمداً مستقبلٌ مشرقٌ في بلاط السلطان مثله مثل أبيه عليّ العربي، حيثُ وُعد بمنصب كاتبٍ في الديوان كما ذكر ابن العبّار في "التكملة".[137] ولكن محمداً لم يكن يتجه بهذا الاتجاه، وكأن مستقبلاً آخراً، أكثر إشراقاً وأكثر سعادةً في الدنيا وفي الآخرة، كان يُرسم له من حيثُ لا يدري، وهو التصوُّف والزهد والتفرُّغ لعبادة الله سبحانه وتعالى.

وكما رأينا أعلاه فإنّ ميول محمّد كانت منذ فترة طفولته تتّجه نحو أهل الله من الفقراء والعبّاد وكان يدافع عنهم ويؤويهم. ومع مصاحبته لهؤلاء الفقراء أمثال عبد الله القطّان وصحبته لمحمد الخيّاط الذي دخل طريق التصوّف أيضاً فكان مثالا لأخيه أحمد ولمحمد ابن العربي.

ولكن، على الرغم من ميوله المبكّر إلى طريق التصوّف، لا نعرف على وجه التحديد متى دخل

---

[135] روح القدس: ص٧٠-٧٢.

[136] روح القدس: ص٧٠-٧٢.

[137] انظر في البحث عن الكبريت الأحمر: ص٣١. وقد ذكر الشيخ محيي الدين في "محاضرة الأبرار" (ج٢ص١١) أن بعض السلاطين طلبه للولاية، وليس فقط لمنصب كاتب كما يذكر ابن العبّار، ولكننا لا نعرف على وجه التحديد متى حصل ذلك ولا المكان أو البلد أو السلطان؛ فقد يكون سلطان الموحدين يعقوب المنصور الذي التقى به الشيخ محيي الدين بعد عودته من فاس، وقد يكون السلطان كيكاوس الذي كان له علاقة حميمة معه، وقد يكون أحد الملوك الأيوبيين في حلب أو في دمشق كما سنرى ذلك لاحقا.

الشيخ محيي الدين فعليًا في هذا الطريق ولا كيفيّة ذلك. وعلى الرغم مما توحيه بعض القصص حوله وحتّى بعض أقواله في الفتوحات والمكية وغيرها، فإن ابن العربي لم يتحوّل إلى التصوف بشكل مفاجئ عن طريق ما يُعرف بالجذبة بعد فراره من حفلة مجون كان يُقدَّم فيها الخمر، كما يقول بعض الرواة. فحتى لو كانت هذه القصة صحيحة فهذا لا يعارض أن الشيخ كان كثيراً ما تراوده الرغبة في الزهد والعزلة مع نفسه ولكنه ربّما تردد قليلا قبل أن يُقدم على مثل هذه الخطوة الجريئة. ومثل هذا التردّد أمرٌ طبيعيٌّ لأن الإنسان لا يستطيع أن يفارق تعلّقه بالدنيا وملذّاته خاصة وإن كان قد أوتي منها الكثير، فيذكر الإمام أبو حامد الغزالي مثلا أنه بقي سنوات طوالا يتردّد في دخول طريق الله ويعتزل الناس والجاه والمال، إلى أن أقدم على ذلك. صحيح أن الشيخ محيي الدين يقول إن فتحه كان نتيجة جذبة كما سنرى بعد قليل، ولكن ذلك كما قلنا لا يعني أنه قد دخل طريق التصوّف بهذا الشكل، بل من المرجّح أنه كان يتهيّأ إلى ذلك منذ طفولته.

على كلّ حال نحن نعرف من خلال النصوص التي تركها لنا الشيخ محيي الدين أن دخوله طريق التصوّف قد حصل قبل أن يتمّ العقد الثاني من عمره، أي قبل سنة ١١٨٤/٥٨٠، كما ذكر هو نفسه في الفتوحات المكية في أثناء حديثه عن بعض المقامات التي ينالها المقرّبون، فقال: "ونلت هذه المقامات في دخولي هذه الطريقة سنة ثمانين وخمسمائة في مدة يسيرة."[١٣٨] وقد حصل ذلك أيضاً بعد وفاة عمّه عبد الله، كما رأينا أعلاه، والذي دخل طريق التصوف وكان عمره ثمانين سنة ثم مات في الثالثة والثمانين من العمر قبل أن يدخل محمد التصوف. ولكن هذا لا يعني بالضرورة أنه دخل الطريق في هذه السنة وإنما قد يكون قبل ذلك بقليل. ورغم أنه نال هذه المقامات بسرعة فهذا لا يعني كما قلنا أن دخول ابن العربي الطريق كان نتيجة جذبة، ولكنه وصل للفتح بنتيجة هذه الجذبة، كما سنرى معنى ذلك بعد قليل.

وقد ذكرت الباحثة كلوديا عدّاس[١٣٩] أنه ربما يكون دخول الشيخ محيي الدين في الطريق قبل سنة ١١٨٤/٥٨٠ بكثير، لا سيما وأنه يذكر أن لقاءه الشهير بابن رشد، الذي سنذكره في آخر هذا الفصل، قد تمّ في مرحلة من عمره كان "ما يزال صبيّاً ما بَقَل وجهُه ولا طرّ شاربُه". وهذا قد يوحي أن ذلك حصل قبل سنة ١١٨٤/٥٨٠ بعدّة سنوات. ولكنّ هذا التحليل لا يبدو مقنعا رغم ما فيه من بعض الدلائل القويّة وذلك لأنّنا لا نجد نشاطا فعليًا للشيخ محيي الدين ابن العربي إلا في سنة ١١٩١/٥٨٦ وهو يقول كما سنفصّل ذلك أدناه أنه لمّا دعاه الله تعالى إليه أجابه مدّة ثم حصلت عنده فترة، وهي الفترة المعلومة في الطريق عند أهل الله التي لا بدّ منها. فإذا كان قد نال المقامات التي ذكرناها أعلاه سنة ١١٨٤/٥٨٠ كما قال هو عن نفسه فلا يبدو أن ذلك حصل بعد الفترة، لأن الفترة تبدو أنها حصلت بين سنة ٥٨٠ وسنة ٥٨٥ حيث لا يوجد له نشاطٌ يُذكر فيها رغم أنه قد أصبح شابًا. فلو كانت الفترة قبل سنة ٥٨٠ لوجدنا على الأقل بعض الأحداث المهمة بعد ذلك وقبل سنة ٥٨٥. وسوف نجد أيضاً في الفصل الرابع دليلا قويًا آخرا يؤكّد أنّ دخول الشيخ محيي الدين في طريق التصوّف لا يمكن أن يكون قبل سنة ٥٨٠ لأنه يقول إنه بقي نحوا من ثمان وثلاثين سنة عازفا عن

---

[١٣٨] الفتوحات المكية: ج٢ص٤٢٥.

[١٣٩] انظر في البحث عن الكبريت الأحمر: ص٣٣-٤٣.

النساء والزواج إلى أن أتاه الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلّم الذي يذكر فيه أن الله حبّب إليه من الدنيا ثلاث ومنها النساء، وكان ذلك في مكة سنة ١٢٠١/٥٩٨ بعد أن تعرّف على الشيخ أبي شجاع الأصفهاني إمام الحرم الإبراهيمي وعلى ابنته نظام التي كتب لها ترجمان الأشواق وربّما تزوّجها أو خطبها كما سنتحدّث عن ذلك بالتفصيل في وقته.

فقد كان إذا محمّد يميل إلى التصوّف منذ صغره، فعندما حان الوقت وشاء الله تعالى قضاء ما قد قدّره، اعتزل ابن العربي في إحدى المقابر خارج البلد وهناك وبدون طول مقدمات أتاه الفتح من الله تعالى بشكل مفاجئ من غير جهاد أو رياضة ولا سلوك طريق طويل كما هو الأمر عادة مع أغلب الصوفية. لقد ذكر لاحقا بعض تلاميذه مثل هذه الرواية كما سنرى بعد قليل. والشيخ محيي الدين نفسه قد ذكر مثلا في الفتوحات المكية بوضوح أن فتحه قد تقدّم على رياضته، مع أنه التزم بعد ذلك مع بعض شيوخ الصوفية ولو أنه لم تكن على الحقيقة علاقته بهم كما هي عادةً علاقة أيّ مريد بشيخه المرشد والتي عادة ما تكون علاقة تعليم واتّباع من المريد للمرشد حتى يأخذ بيده إلى أن يفتح الله عليه. ولكن بما أن الشيخ محيي الدين كان على الحقيقة مُراداً قبل أن يكون مريداً ولذلك تمّ فتحه بوقتٍ قصيرٍ جداً وبلغ مراتب الشيوخ رغم صغر سنه، فلذلك كانت علاقته بشيوخه علاقة انتفاع متبادل فتعلّم منهم وعلّمهم، مثل الشيخ أبي يعقوب يوسف الكومي الذي يقول عنه:

> وما راضني أحدٌ من مشايخي سواه، فانتفعت به في الرياضة، وانتفع بنا في مواجيده. فكان لي تلميذاً وأستاذاً وكنت له مثل ذلك. وكان الناس يتعجبون من ذلك ولا يعرف واحدٌ منهم سبب ذلك، وذلك سنة ست وثمانين وخمسمائة. فإنه كان قد تقدّم فتحي على رياضتي، وهو مقام خطر، فأفاء الله عليّ بتحصيل الرياضة على يد هذا الشيخ جزاه الله عني كل خير.[١٠٠]

وكذلك نجد أن الشيخ محيي الدين كان منذ بدايته في مراتب الشيوخ الكبار رغم صغر سنه وحداثته، فكان بعض الناس من الذين ليس لهم قَدم في طريق التصوّف يثقون به أكثر مما يثقون بغيره من الشيوخ كما كان حال الخطيب أبي القاسم ابن عفير حين كان الشيخ أبو عمران الميرتيلي، الذي سنذكره بعد قليل، يحاول إقناعه بأحوال أهل التصوف:

> وسمعت شيخنا أبا عمران موسى بن عمران الميرتلي بمنزله بمسجد الرضي بإشبيلية وهو يقول للخطيب أبي القاسم بن عفير، وقد أنكر أبو القاسم ما يذكر أهل هذه الطريقة: يا أبا القاسم لا تفعل فإنك إن فعلت هذا جمعنا بين حرمانين: لا نرى ذلك من نفوسنا ولا نؤمن به من غيرنا وما ثَمّ دليلٌ يردّه ولا قادحٌ يقدح فيه شرعاً وعقلاً، ثم استشهدني على ما ذكره، وكان أبو القاسم يعتقد فينا، فقرّرت عنده ما قاله بدليلٍ يسلّمه من مذهبه، فإنه كان محدّثا، فشرح الله

[١٠٠] الفتوحات المكية: ج١ص٦١٦.

صدره للقبول وشكرني الشيخ ودعا لي.[141]

الدوافع

وفي كل الأحوال فمن الصعب أيضاً تحديد ما حصل بالتحديد لابن العربي مما أدى به إلى الدخول في طريق التصوف، وذلك لأن ابن العربي نفسه لم يتكلم عن هذه المسألة بشكل صريح ومباشر رغم أنه عادة ما يذكر ما يحصل له من الأمور المهمة بقدر جيّد من التفصيل. ولكن هناك رواية يذكرها القاري البغدادي في كتابه "مناقب ابن العربي" الذي خصصه لتوضيح سيرته والدفاع عن مذهبه وأقواله،[142] غير أنه، أي البغدادي، ربما لم يكن دقيقا بما فيه الكفاية لدرجة أنه لا يمكن الوثوق بكل ما يذكره مع أنه كان يحاول عن حسن نيّة إقناع المعارضين لابن العربي بأيّ ثمن. من أجل ذلك يجب أن نأخذ القصة التالية التي يرويها بحذر شديد، خاصّة وأنها تبدو محبوكة بشكل جيّد وفقا لما يُروى عن أحوال الكثير من أعلام التصوّف كابن الأدهم وغيره، ولكن بما أنها هي المصدر الوحيد حتى الآن فلا بأس من ذكرها.

فيذكر البغدادي أنه في إحدى المناسبات دُعي والدُ ابن العربي إلى حفلة عند أحد أصدقاءه مع الأمراء والوزراء وأبنائهم وكان ابن العربي معهم. فبعد أن أكلوا حتى التخمة وجاء دور الشراب فصُبّ الخمر ودارت الكؤوس. فلما جاء الدور إلى محمد وملئ له الكأس فمسكه ليشرب ولكنه سمع صوتا يناديه: "يا محمد، أنت لم تُخلق لهذا!" فرمى الكأس من يده وخرج من الدار وخرج إلى خارج المدينة وهناك التقى براعي غنم فاستصحبه معه واستبدل بثيابه لباس الراعي وخرج إلى إحدى المقابر فوجد قبرا قد خرب وصار مغارة فدخل فيه وصار يذكر الله تعالى ولا يخرج إلا وقت الصلاة. فقال ابن العربي، كما يروي البغدادي، إنه بقي في تلك المقبرة أربعة أيام ثم خرج بكل هذا العلم الذي سطّر بعضه لاحقا في كتبه.[143]

وفي رواية أخرى لإسماعيل ابن سودكين النوري (توفي ٦٤٦/١٢٤٨)، وهو تلميذ ابن العربي المقرّب والذي رافقه في كثير من رحلاته في المشرق، يذكر في كتاب "الوسائل" أن ابن العربي قال إنه دخل الخلوة قبل الفجر وتلقى الفتح قبل طلوع الشمس، ولكن يضيف أنه بقي في هذه الخلوة أربعة عشر شهرا وأنه حصّل خلال هذه الفترة جميع العلوم التي تكلم بها. ويقول أيضاً أنّ فتحه كان نتيجة جذبة في تلك اللحظة.[144]

وعلى كلّ حال فكل هذه القصص، وإن صحّت، ليست بالضرورة دليلا على زمن دخول الشيخ محيي الدين ابن العربي في طريق التصوّف ولا توضّح الدوافع الحقيقية لذلك؛ وإنّما يبدو من كل ما ذكرناه أعلاه أن الشيخ محيي الدين كان منذ صغره له مثل هذا الميول ولم يحصل الأمر عنده فجأة أبدا عن طريق

---

[141] الفتوحات المكية: ج٢ص٦.

[142] القاري البغدادي، مناقب ابن العربي، ص٢٢.

[143] البحث عن الكبريت الأحمر: ص٣٦.

[144] البحث عن الكبريت الأحمر: ص٣٦.

الجذبة.

ولكن قبل المضي في سيرة الشيخ محيي الدين والتعمّق في تحليل حياته وعلومه لا بدّ أن نوضّح بعض هذه المصطلحات التي مرّت أعلاه كالجذبة والفتح والمريد والمراد والتي ستمرّ معنا في الفصول اللاحقة، كما سنحاول شرح كل مصطلح عندما نحتاج إليه.

الفتح

يُقصد بالفتح العلوم والمعارف الذوقية التي تنكشف للعبد السالك في طريق الله تعالى، وذلك بخلاف العلوم التي تأتي عن طريق التفكّر أو الخبر وهو ما يسمّى العقل والنقل. وبذلك فإن الفتح هو بمثابة فتح عين البصيرة بحيث يبدأ العبد إدراك العالم الروحاني الباطن ببصيرته كما يدرك الناسُ العالم الظاهر ببصرهم.

يقول الشيخ الأكبر في الباب السادس عشر ومائتين من الفتوحات المكية "في معرفة الفتوح وأسراره" أن الفتوح على ثلاثة أنواع: الأول فتوح العبارة في الظاهر وسببه إخلاص القصد، والثاني هو فتوح الحلاوة في الباطن وهو سبب جذب الحق بأعطافه، وأما النوع الثالث فهو فتوح المكاشفة بالحق وهو سبب المعرفة بالحق. والأمر الجامع لذلك كله أن كل أمر جاءك من غير تعمّل ولا استشراف ولا طلب فهو فتوح ظاهراً كان أو باطناً، وله علامة في الذائق الفتوح وهي عدم الأخذ من فتوح الغير أو نتائج الفكر؛ ومن شرط الفتوح أن لا يصحبه فكر ولا يكون نتيجة فكر. كان الشيخ أبو مدين يقول في الفتوح: "أطعمونا لحماً طرياً لا تطعمونا القديد" أي لا تنقلوا إلينا من الفتوح إلا ما يُفتح به عليكم في قلوبكم لا تنقلوا إلينا فتوح غيركم.[145]

ثم قال الشيخ الأكبر في نفس الباب إن الفتح الإلهي على نوعين: فتح عن قرع، وفتح ابتداءً لا عن قرع، وهو المطلوب عند القوم؛ أي أن الفتح الذي لا يكون نتيجةً متوقعة لعمل هو الفتح الصحيح مع أن العمل بطبيعته يطلب الفتح ولكن يجب على العبد أن لا ينتظر الفتح جزاءً على عمله وإلا فقد يكون ذلك الفتح استدراجا.[146]

المريد والمراد

فإذاً هناك في طريق الله مريد ومراد، فالمريد هو الذي يسعى جاهدا في طاعة الله ويزكّي نفسه ويحلّيها بالأخلاق الحسنة ويخلّي قلبه من أي تعلق في الدنيا حتى يستطيع أن يستقبل التجلّي الإلهي؛ أما المراد فهو شخص وفّقه الله وهيّأه للفتح من غير جهاد ولا تعب. ففي خلال أجوبته على أسئلة الترمذي يفصّل الشيخ محيي الدين معنى المريد والمراد والفرق بينهما فيقول:

فان قلت وما المراد وما المريد؟ قلنا المراد عبارة عن المجذوب عن إرادته

---

[145] الفتوحات المكية: ج٢ص٥٠٥.

[146] الفتوحات المكية: ج٢ص٥٠٥.

مع تهيّؤ الأمر له فجاوز الرسوم كلها والمقامات من غير مكابدة، وأما المريد فهو المتجرّد عن إرادته، وقال أبو حامد هو الذي صحّ له الأسماء ودخل في جملة المنقطعين إلى الله بالاسم. وأما المريد عندنا فنطلقه على شخصين لحالين: الواحد من سلك الطريق بمكابدة ومشاقّ ولم تصرفه تلك المشاقّ عن طريقه، والآخر من تنفُذُ إرادته في الأشياء وهذا هو المتحقق بالإرادة لا المراد.[147]

ثم قال الشيخ رضي الله عنه في الفتوحات في الباب السابع والعشرين ومائتان (في معرفة حال المراد) إن المراد في اصطلاح القوم هو المجذوب عن إرادته مع تهيّؤ الأمور، فهو يجاوز الرسوم والمقامات من غير مشقّة بل بتلذّذ وحلاوة وطيب تهوّن عليه الصعاب وشدائد الأمور، وأنشد:[148]

إن المُـــراد هـــو المجـــذوب بالحـــال ... في كـــل حـــالٍ علـــى حـــلٍّ وترحـــال
يُمـــشى بـــه وهـــو في بيـــضاءَ في دعَـــةٍ ... علـــى المقامـــات مـــن حـــال إلى حـــال
عنايـــة منـــه والرحمـــن يحرســـه ... بعينـــه فهـــو في نُعمـــى وإقبـــال

أما عن المريد فقال في الباب الثامن والعشرين ومائتان (في حال المريد) أن لفظة المريد عند المحققين من أهل الله تُطلق بإزاء المنقطع إلى الله المؤثِر جناب الله الساعي في محابّ الله ومراضيه، وقد يطلقونها بإزاء المتجرّد عن إرادته.[149]

الجذبة

والجذبة أو الجذب مصطلح صوفي يُقصد به "ملاحظة العناية الإلهية للعبد باجتذابه إلى حضرة القرب" وذلك بأن يهيّئ الله له كلّ ما يحتاجه في طريقه لاجتياز المنازل والمقامات دون كلفة ولا مشقّة، بعكس المريد السالك الذي يقطع الطريق بالمجاهدة والرياضة. ويقول شيوخ التصوف: إن صاحب الجذبة يرى في بدايته ما يكون له في نهايته، وإن جذبةً من جذبات الحق تُربي على أعمال الثقلين.

فالمراد إذاً مجذوبٌ عن إرادته، وهذه الحالة خطيرة جداً بين الصوفية. يقول الشيخ محيي الدين في رسالة الأنوار: "فإن الإنسان إذا تقدم فتحُه قبل رياضته فلن يجيء منه رجلٌ أبداً إلا في حكم النادر".[150] وهكذا كان ابن العربي من هذه النوادر.

---

[147] الفتوحات المكية: ج٢ص١٣٤.

[148] الفتوحات المكية: ج٢ص٥٢٣.

[149] الفتوحات المكية: ج٢ص٥٢٥.

[150] الإسفار عن رسالة الأنوار فيما يتجلى لأهل الذكر من أنوار، تأليف: ابن عربي الحاتمي الطائي وشرح) عبد الكريم الجيلي ، تحقيق: عاصم كيالي، دار الكتب العلمية-بيروت،٢٠٠٤، ص١٠٢.

شيخه الأول عيسى عليه السلام

إذاً، على الرغم من أن فتحه كان جذبةً سبقت رياضته، فإن بداية الشيخ محيي الدين ابن العربي في طريق التصوف لم تكن تحوّلا أو منعطفا غير متوقّع في حياته كما قد يُتوهّم من بعض الروايات، لأن طبيعته وميوله كانت منذ صغره موافقة لأهل الله تعالى من الفقراء والزهّاد إلى أن انتظم كلياً في طريق الزهد منذ بداية شبابه وربّما قبل بلوغه سنّ الرشد، حيث بدأ التربية على أيدي شيوخ عصره كما ذكرنا أعلاه.

ولكن الشيخ الأكبر كثيراً ما يشير في الفتوحات المكية كيف أن توبته حصلت في الحقيقة على يد عيسى ابن مريم عليه السلام، في رؤيا مبشّرة رآه فيها مع غيره من الرسل صلى الله وسلم عليهم أجمعين، كما سنتطرّق إلى ذلك بمزيد من التفصيل بعد قليل. وهذا معنى قوله في الفتوحات: "ومن الواقعة كان رجوعنا إلى الله، وهي أتمّ العلل وهي المبشرات...."،[151] وقال أيضاً في مزيد من التفصيل في الباب التاسع والعشرين وخمسمائة في معرض حديثه عن معرفة حال قطب، يبدو أنه هو نفسه الشيخ الأكبر، كان منزله الآية من سورة الأعراف (وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ...﴿٥٨﴾):

> اعلم أيّدنا الله وإياك بروح القدس أن هذا الذكر كان لنا من الله عزّ وجلّ: لمّا دعانا الله تعالى إليه فأجبناه إلى ما دعانا إليه مدّة ثم حصلت عندنا فترة، وهي الفترة المعلومة في الطريق[152] عند أهل الله التي لا بدّ منها لكل داخل في الطريق ثم إذا حصلت الفترة إما أن يعقبها رجوع إلى الحال الأوّل من العبادة والاجتهاد، وهم أهل العناية الإلهية الذين اعتنى الله عزّ وجلّ بهم، وإما أن تصحبه الفترة فلا يفلح أبداً. فلمّا أدركتنا الفترة وتحكّمت فينا رأينا الحق في واقعة[153] فتلى علينا هذه الآيات (من سورة الأعراف): (وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ) ... الآية [٥٨-٥٩]، ثم قال: (وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ). فعلمت أني المراد بهذه الآية وقلت: ينبّه بما تلاه علينا على التوفيق الأوّل الذي هدانا الله به على يد عيسى وموسى ومحمد سلام الله على

---

[151] الفتوحات المكية: ج٢ص٤٩١.

[152] الفترة هي "خمود نار البداية المحرقة" (الفتوحات المكية: ج٢ص١٣٢)، أي خمود همّة المريد. فقد مرّ الشيخ محيي الدين بهذه الفترة وربّما يكون ذلك بين سنتي ٥٨٠/١١٨٤ و٥٨٥/١١٩٠ كما سنرى بعد قليل.

[153] لقد أجاز معظم العلماء رؤية الله تعالى في المنام، وقد يظهر سبحانه بأي صورة شاء، كما ظهر للنبي محمد صلّى الله عليه وسلّم على صورة "شاب له وفرة" (كنز العمال: رقم ١١٥١-١١٥٤). والصورة التي يظهر بها الحق سبحانه في المنام تعود لحال الرائي وليست هي صورته سبحانه وتعالى، وكذلك رؤية رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في المنام (الفتوحات المكية: ج٤ص٢٨). وقد رأى ابن العربي الحق تعالى في المنام مرات عديدة سنذكر بعضها في الفصول القادمة إن شاء الله.

جميعهم، فإن رجوعنا إلى هذا الطريق كان بمبشرة على يد عيسى وموسى ومحمد عليهم السلام:[154] (بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ)، وهي العناية بنا، (حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا)، وهو ترادف التوفيق، (سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ)، وهو أنا، (فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ)، وهو ما ظهر علينا من أنوار القبول والعمل الصالح والتعشق به، ثم مثل فقال: (كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)، يشير بذلك إلى خبر ورد عن النبي صلّى الله عليه وسلّم في البعث أعني حشر الأجسام من أن الله يجعل السماء تمطر مثل مني الرجال ... الحديث.[155] ثم قال: (وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ)، وليس سوى الموافقة والسمع والطاعة لطهارة المحل، (وَٱلَّذِى خَبُثَ)، وهو الذي غلبت عليه نفسه والطبع -وهو معنى به في نفس الأمر- (لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا)، مثل قوله [صلّى الله عليه وسلّم] أن لله عباداً يقادون إلى الجنة بالسلاسل،[156] وقوله [تعالى]: (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا) [الرعد: ١٥]، فقلنا: طوعاً يا إلهنا.[157]

ومع أنه يذكر أنه رأى في هذه الواقعة عيسى وموسى ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، إلا أنه يخصّ عيسى عليه السلام لأنه هو الذي تولاّه منذ بدايته فكان "عيسوي المقام" مثل شيخه أبي العبّاس العريبي الذي بدأ معه الطريق كما سنرى لاحقا، مع أنه انتقل بعد ذلك إلى المقام المحمدي.

بداية زهده وتخلّيه عن أمواله

كما هو الأمر على كل من يريد دخول طريق التصوف والزهد، كان لا بدّ لابن العربي من أن يتخلى عن ماله وملكه حتى يتفرّغ لعبادة ربّه ويحرّر نفسه من قيود التعلّقات الدنيوية. ويُرجع ابن العربي أصل هذا التصرّف إلى الحديث الشهير عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

---

[154] سوف نتطرق لهذه الرؤيا بمزيد من التفصيل لاحقا بعد قليل.

[155] لم أجد هذا الحديث ولكن ورد في حديث مشابه متفق عليه عن أبي هريرة أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: "ما بين النفختين أربعون. ثم يُنزل الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل، وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظم واحد وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة" (كنز العمال: رقم ٣٨٩٠٨).

[156] كنز العمال: رقم ١٠٦٦٧، ٣٤١٤١. وخرّج البخاري عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: "عَجِبَ اللهُ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فِي السَّلَاسِلِ" (صحيح البخاري: رقم ٣٨٤٨)، وقد أخرجه أبو داود بلفظ "يقادون إلى الجنة بالسلاسل".

[157] الفتوحات المكية: ج٤ص١٧٢.

أمرنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يوما أن نتصدق ووافق ذلك مالا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: ما أبقيت لأهلك؟ قلت، أبقيت لهم، قال: ما أبقيت لهم؟ قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال: يا أبا بكر! ما أبقيت لأهلك؟ فقال: أبقيت لهم الله ورسوله. قلت: لا أسبقه إلى شيء أبدا.[١٥٨]

ولكن بما أن محيي الدين لم يكن بعدُ قد التزم مع شيخ يثق به، شاور بذلك والده وأعطاه كلّ ما يملك من طوع نفسه:

وهكذا كان خروجنا عمّا بأيدينا ولم يكن لنا شيخ نحكّمه في ذلك ولا نرميه بين يديه فحكّمنا فيه الوالد رحمه الله لمّا شاورنا في ذلك، فإنّا تركنا ما بأيدينا ولم نسند أمره إلى أحد لأنّا لم نرجع على يد شيخ، ولا كنت رأيت شيخاً في الطريق بل خرجت عنه خروج الميت عن أهله ومالِه. فلمّا شارونا الوالد وطلب منّا الأمر في ذلك حكّمناه في ذلك ولم أسأل بعد ذلك ما صنع فيه إلى يومي هذا. هذا ما يعطي حكم ذوق النفس ولا بدّ منه لكل طالب.[١٥٩]

ثم يقول إن أصل ذلك هو إتيان أبي بكر بجميع ما يملكه إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم حين قال له ائتني بما عندك، وأتاه عمر بشطر ماله فإنه صلّى الله عليه وسلّم ما حدّ لهم في ذلك ولو حدّ لهم في ذلك ما تعدى أحد منهم ما حدّه له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وإنما أراد صلّى الله عليه وسلّم أن تتميز مراتب القوم عندهم فقال لأبي بكر: "ما تركت لأهلك؟" فقال: "الله ورسوله" وهذا غاية الأدب، حيث قال "ورسوله"، فإنه لو قال: "الله" لم يتمكن له أن يرجع في شيء من ذلك إلاّ حتى يرده الله عليه من غير واسطة حالاً وذوقاً، فلما علم ذلك قال: "رسوله"، فلو ردّ إليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من ماله شيئاً قبله لأهله من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فإنه تركه لأهله فما حكّم فيه إلاّ من استنابه ربّ المال. فانظر ما أحكم هذا وما أشد معرفة أبي بكر بمراتب الأمور. وتخيّل عمرٌ أنه يسبق أبا بكر في ذلك اليوم لأنه رأى إتيانه بشطر ماله عظيما. ثم قال رسول الله صلى الله عليهم وسلم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: "ما تركت لأهلك؟" قال: "شطر مالي"، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "بينكما ما بين كلمتيكما". قال عمر: "فعلمت أني لا أسبق أبا بكر أبداً". والإنسان ينبغي أن يكون عالي الهمة يرغب في أعلى المراتب عند الله ويوفى كل مرتبة حقها: فلم يرد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على أبي بكر شيئا من ماله تنبيهاً للحاضرين على ما علمه من صدق أبي بكر في ذلك، فإن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد عَلم منه الرفق والرحمة فلو ردّ شيئا من ذلك عليه تطرق الاحتمال في حق أبي بكر أنه خطر له رفق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فعوّض رسول الله

---

[١٥٨] أخرجه الدارمي وقال: حسن صحيح، وأخرجه الترمذي في كتاب مناقب أبي بكر الصديق، رقم ٣٧٥٧، وقال حسن صحيح، وكذلك الشاشي وابن أبي عاصم وابن شاهين في السنة. انظر في كنز العمال: رقم ٣٥٦١١.

[١٥٩] الفتوحات المكية: ج٢ص٥٤٨.

صلّى الله عليه وسلّم أهل أبي بكر بما يقتضيه نظره صلّى الله عليه وسلّم. وجاءه عبد الرحمن بن عوف بجميع ماله فرده عليه كلّه وقال: "أمسك عليك مالك".[160]

محاسبة النفس وتقييد الخواطر في دفتر

إن التصوّف يعتمد كما رأينا بشكل أساسي على تصفية القلب وتزكية النفس، وهذا أمر ليس من السهولة بمكان بل يتطلّب الكثير من الجهد والمراقبة والمتابعة والشدّة. ومن ضمن الوسائل المتبعة لتزكية النفس ومراقبتها ومحاسبتها على أفعالها تقييد الخواطر التي تخطر على القلب حتى يستطيع الإنسان تقويم نفسه فيحارب الخواطر الضارّة ويثابر على الخواطر النافعة. ولقد تكلمنا عن أنواع الخواطر وكيفية ورودها على القلب وكيفية التمييز بينها في كتاب سلوك القلب،[161] كما بيّنها الشيخ محيي الدين في الباب الخامس والخمسين والباب الرابع والستين ومائتين من الفتوحات المكية.

لقد ذكر الشيخ محيي الدين ابن العربي أنّ بعض أشياخه كانوا يحاسبون أنفسهم على ما يتكلمون به وما يفعلونه ويقيّدونه في دفتر فإذا كان بعد صلاة العشاء وخلوا في بيوتهم حاسبوا أنفسهم وأحضروا دفترهم ونظروا فيما صدر منهم في يومهم من قول وعمل وقابلوا كلّ عمل بما يستحقه: إن استحق استغفاراً استغفروا وإن استحق توبةً تابوا وإن استحق شكراً شكروا، إلى أن يفرغ ما كان منهم في ذلك اليوم وبعد ذلك ينامون. ويضيف الشيخ محيي الدين أنه كان يفعل ذلك وزاد عليهم في هذا الباب بتقييد الخواطر؛ فكان يقيّد ما تحدثه به نفسه وما تهم به بالإضافة إلى كلامه وأفعاله. وكان يحاسب نفسه مثلهم في ذلك الوقت ويحضر الدفتر ويطالبها بجميع ما خطر لها وما حدّثت به نفسها وما ظهر للحس من ذلك من قول وعمل وما نوته في ذلك الخاطر والحديث؛ وبذلك قلّت عنده الخواطر والفضول إلا فيما يعنيه، فهذا من فائدة الاشتغال بالنية، وهو ذو فائدة عظيمة ولكن يغفل أكثر أهل الطريق عن ذلك وهو راجع إلى مراعاة الأنفاس وهي عزيزة.[162] وأصل هذا العمل هو في الحقيقة من أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في قوله: حاسبوا أنفسكم.[163]

الفترة من سنة ٥٨٠/١١٨٤ إلى سنة ٥٨٥/١١٩٠

بعد أن دخل طريق الله حوالي سنة ٥٨٠ كما ذكرنا أعلاه، قضى الشيخ الأكبر بضع سنوات في إشبيلية وما حولها ولكننا لا نعرف الكثير عن تفاصيل حياته في هذه الفترة من سنة ٥٨٠ حتى سنة ٥٨٥، في

---

[160] الفتوحات المكية: ج٢ص٥٤٩.

[161] سلوك القلب: ص١٥٨-١٦٧.

[162] الفتوحات المكية: ج١ص٢٧٥.

[163] هذا الحديث: "حاسبوا أنفسكم" لا يوجد مرفوعا إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم، ولكنه يُروى عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أنه قال في خطبته: حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وَزِنُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ وَإِنَّمَا يَخِفُّ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا. انظر في تحفة الأحوذي للمباركفوري: ٢٥٠٨، وكنز العمال: ٤٤٢٠٣.

حين نجد أنّ سنة ٥٨٦ حافلة بالأحداث الكثيرة التي يذكرها الشيخ في الفتوحات وغيرها. ولكن يبدو أنه كان خلال هذه السنوات في إشبيلية وربما كان يسافر إلى المدن المجاورة كقرطبة وغيرها، وكذلك إلى المدن الساحلية. ومن المؤكد أيضاً أنه كان خلال هذه الفترة يتعلم القرآن والحديث والأدب على يد شيوخ عصره في إشبيلية كما سنرى بعد قليل، ولكن من غير أن نعلم تفاصيل التواريخ للأحداث التي جرت من سنة ٥٨٠ وحتى سنة ٥٨٥.

فيبدو إذاً أن "الفترة" التي يتكلّم عنها الشيخ محيي الدين أنه مرّ بها كانت في هذه الفترة من تاريخ حياته، ومن غير المستبعد أن تكون الأحداث التي ذكرناها أعلاه ونقلناها عنه من كتاب روح القدس أنه كان يحضر مجالس الطرب والسهر مع أصحاب السوء فيسمع الغناء والشعر ويتكاسل عن الصلاة إلى ما هنالك، يبدو أن هذه الأحداث وقعت في هذه الفترة، ولذلك كان بعض شيوخه يخافون عليه وذلك لأنّ فتحه سبق رياضته وهي حالة لا تُنتج رجالا إلا في حكم النادر كما رأينا. ولذلك لا نجد أي نشاط علمي لابن العربي في هذه الفترة رغم أنه قد دخل طريق التصوّف سنة ٥٨٠ أو قبلها وحاز الكثير من المقامات الرفيعة في هذه السنة.

ففي حين أن الشيخ محيي الدين يذكر سنة ٥٨٦ كثيرا، ربما يكون الذكر الوحيد لسنة ٥٨٥ هو ذكره العابر لرجل غير عادي من قوم يونس رأى أثره في الساحل (ربما يكون الساحل الغربي الجنوبي، قرب روطة، حيث سنجده أنه يفضل السياحة في هذا المكان). فيقول إنه رأى أثر هذا الرجل الذي كان من العمالقة، وكان أمامه على الساحل بقليل ولكنه لم يدركه، فاكتال طول قدمه في الرمل فوجدها ثلاثة أشبار وثلثي شبر، ويقول إنه رأى من رآه، وبعث إليه بكلام عن حوادث تحدث بالأندلس حيث كانوا في ذلك الوقت سنة خمس وثمانين وسنة ست وثمانين وخمسمائة، فما ذكر شيئا إلا وقع كما ذكر.[١٦٤]

تعلّمه للحديث والسيرة (قبل ٥٨٦/١١٩٠)

وكذلك تعلّم محمد الحديث على يد المحدّث عبد الرحمن السهيلي (توفي ٥٨١/١١٨٥)[١٦٥] الذي قرأ عليه كتابه "الروض الأنف" وهو تعليق على سيرة ابن هشام. وكذلك حضر عند ابن زرقون (توفي

---

[١٦٤] الفتوحات المكية، ج٣ص٤١٥، انظر أيضاً ج١ص٢٢٢ حيث يذكر اسم صاحبه الذي اجتمع به نقل له الخبر وهو أبو عبد الله بن خرز الطنجي وكان ذلك سنة ٥٨٥.

[١٦٥] هو أبو القاسم وأبو زيد عبد الرحمن بن الخطيب أبي محمد بن عبد الله بن الخطيب أبي عمر أحمد بن أبي الحسن: أصبغ بن حسين بن سعدون بن رضوان بن فتوح السهيلي الإمام المشهور صاحب كتاب: الروض الأنف في شرح سيرة سيدنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وله كتاب التعريف والإعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام وله كتاب نتائج الفكر وكتاب شرح آية الوصية في الفرائض كتاب بديع ومسألة رؤية النبي صلّى الله عليه وسلّم في المنام ومسألة السر في عور الدجال، إلى غير ذلك من تآليفه المفيدة وأوضاعه الغريبة وكان له حظ وافر من العلم والأدب. انظر: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ابن فرحون المالكي، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث-القاهرة، ١٩٧٢، ص١٥٠.

٥٨٦/١١٩٠)[١٦٦] الذي قرأ عليه كتاب "التقصّي" للشاطبي، وأجازه إجازة عامة.

وكذلك قرأ على الشيخ عبد الحق الأزدي الإشبيلي وهو المعروف بابن الخرّاط (توفي ٥٨١/١١٨٥) وهو الذي ألّف عدداً كبيراً من كتب الحديث منها "الأحكام الكبرى"، "الأحكام الوسطى" و "الأحكام الصغرى"، وقرأ عليه كتاب ابن حزم الشهير "الزاهرة". وكان الشيخ عبد الحق الإشبيلي صاحب الشيخ أبي مدين الذي تأثر به ابن العربي كثيرا كما سنرى في الفصل القادم، وبالتالي فلا بدّ أن ميوله كان صوفياً وقد تأثر به محيي الدين كثيراً حيث روى عنه بعض الأحاديث منها ما يتعلق بالأسماء الحسنى وعددها وكيفية إحصائها.[١٦٧]

ولم يكن ابن العربي في أول تعلّمه مهتمًا كثيراً بالحديث الشريف بشكل مخصوص، إلى أن رأى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في رؤيا مبشّرة رواها في كتاب "المبشرات":

> كان من جملة أصحابنا قبل أن أعرف العلم قد رتبوا وقصدوني محرّضين على قراءة كتب الرأي وأنا لا علم لي بذلك ولا بالحديث، فرأيت نفسي في المنام وكأني في فضاءٍ واسعٍ وجماعة بأيديهم سلاح يريدون قتلي ولا ملجأ معي آوي إليه، فرأيت أمامي ربوة ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم عليها واقف، فلجأت إليه فألقى ذراعه عليّ وضمني ضمًا عظيما وقال لي: "يا حبيبي استمسك بي لتسلم". فنظرت إلى هؤلاء الأعداء فلم أر منهم على وجه الأرض أحداً. فمن ذلك الوقت اشتغلت بتقييد الحديث.[١٦٨]

وقد روى الشيخ الأكبر أيضاً في هذا الكتاب نفسه الذي يروي فيه بعض المبشّرات التي رآها في المنام والتي تفيد المريدين والمتعلمين فقال أيضاً إنه رأى الإمام مالك بن أنس الأصبحي إمام دار الهجرة في المنام وعليه ثوب أبيض يجرّ منه في الأرض اثني عشر ذراعاً وهو على بابٍ يقال له باب الفتح، فقال له: يا مالك، ما أقرأ؟ فقال: تحبُّ أن تقرأ كتب الرأي؟ فرأى محيي الدين شخصا كان يشتغل بكتب الرأي وهو ينظر في مزبلة معرضا عن مالك مقبلا على المزبلة، فقال للإمام: يا مالك، أخاف أن تقودني كتب الرأي إلى ما قادت هذا الشخص! فتبسم مالك رضي الله عنه وقال له: صدقت، عليك يا بني بتقييد الحديث والعمل به.[١٦٩]

وبذلك بدأ الشيخ محيي الدين الاهتمام بالحديث النبوي الشريف وكتب عنه الكثير من المؤلفات

---

[166] هو الشيخ الفقيه الإمام المعمّر المقرئ، بقية السلف، أبو عبد الله محمد بن أبي الطيب سعيد بن أحمد بن سعيد بن عبد البر بن مجاهد ابن زرقون الأنصاري الأندلسي الإشبيلي المالكي. أجاز له عام اثنين وخمس مئة أبو عبد الله أحمد بن محمد الخولاني راوي الموطأ، وفيها ولد، وتفرد في وقته عنه. وسمع بمراكش من أبي عمران موسى بن أبي الليد، فتفرد عنه أيضاً، وسمع بسبتة من القاضي عبد الله بن أحمد الوحيدي، وسمع من عبد المجيد بن عبدون، وخلف بن يوسف الأبرش، والقاضي عياض بن موسى، وحدث عنهم، وعن أبي بحر بن العاص، ومحمد بن شبرين، وأبي الحسن شريح بن محمد... انظر: الذهبي، "سير أعلام النبلاء": ج٢١ص١٤٧-١٥٠.

[167] انظر الفتوحات المكية: ج٢ص٣٠٢.

[168] رسالة المبشرات، مخطوطة بايزيد ١٦٨٦.

[169] رسالة المبشرات، مخطوطة بايزيد ١٦٨٦.

الفريدة منها: "الأحاديث القدسية"، "اختصار الترمذي"، "اختصار البخاري"، "اختصار السيرة النبوية المحمدية"، "اختصار المحلى"، "اختصار مسلم"، "كتاب الأربعين حديثا في الطوالات"، "كتاب الأربعين المتقابلة في الحديث"، "المصباح في الجمع بين الصحاح"، "مشكاة الأنوار فيما روي عن الله من الأخبار"، ومعظم هذه الكتب لا تزال مخطوطات غير مطبوعة.

وقد حدّث الشيخ الأكبر عن كثيرٍ من الرجال ونقل الحديث وهو من رواة كتاب سنن الترمذي الذي أجازه به شيخه أبو شجاع في مكة سنة ٥٩٨ كما سنرى في الفصل الرابع. وكذلك ذكر الشيخ الأكبر في بعض كتبه طرقا كثيرة يروي بها الأحاديث عن المحدّثين.[170] وقد قال العجلوني مؤلف كتاب "كشف الخفاء" نقلا عن الشيخ حجازي الواعظ شارح "الجامع الصغير" للسيوطي بأن الشيخ محيي الدين ابن العربي معدود من الحفاظ، والحافظ هو من يحفظ مائة ألف حديث.

وتجدر الإشارة إلى أن الصوفية لهم طريقتهم الخاصة في نقل الحديث وتصحيحه، رغم أنهم لا يلزمون أحدا فيما ينقلونه ولا يخطّئون ما صحّ من الحديث في الصحاح وغيرها حتى وإن لم يصحّ عندهم من طريق الكشف.

الفقه والعلوم النظرية

وعلى ضوء ما ذكرناه أعلاه من تركيز الشيخ محيي الدين على الحديث النبوي الشريف، بالإضافة إلى اعتماده كصوفي على العلم الكشفي الذوقي، فقد أعرض رضي الله عنه عن العلوم النظرية (من كلمة "النظر" وهو "الرأي") كالفلسفة وعموم علوم الرأي. فالصوفية لا يُقحمون أنفسهم بجدال الآراء والأقوال المختلفة المتضاربة، ولا يتكلمون إلا عن بصيرة، كما يقول الله تعالى في آخر سورة يوسف: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

ولكن الشيخ رضي الله عنه كتب بعض الكتب في الفقه، وخصّص كما ذكرنا أعلاه جزءاً كبيراً من كتاب الفتوحات المكية للكلام عن الأحكام الفقهية المختلفة للعبادات كالصلاة والصيام والزكاة والحج، ولكنه لم يقحم نفسه في أي جدل وغايته أن يذكر الآراء المختلفة ثم يذكر ما يقول به هو.[171] وكتب كذلك بعض الكتب المتخصصة بالفقه ولكنها ما زالت مخطوطة لم تُطبع، ومنها: "أسرار تكبيرات الصلاة"، "أسرار الوضوء وأركانه"، "جامع الأحكام فيما يتعلق بالحلال والحرام"، "حجة الوداع"، "كتاب الحكم والشرائع"، "رسالة الاستخارة"، "رسالة في أصول الفقه"، "رسالة في الصلاة"، "المحجّة البيضاء في الأحكام الشرعية".

ولقد ذم الشيخ الأكبر بعض أصناف الفقهاء، من غير تحديد أي اسم معيّن، ولكنه أكّد أنه لا يقصد سوى الفقهاء الذين غرّتهم الحياة الدنيا ولم يقصدوا من علومهم وجه الله تعالى بل قصدوا الشهرة والجاه لدى

---

[170] انظر مقدمته في كتاب "محاضرة الأبرار".

[171] انظر النصف الثاني من الجزء الأول من كتاب الفتوحات المكية، وهي الأبواب: ٦٩-٧١.

السلاطين كما كان حال أغلبهم.[١٧٢] وقد تمثّل ذلك أيضاً في بعض المنامات التي رآها أو رواها عن بعض الصالحين، فقال مثلاً في كتاب المبشرات أن رجلا من الصالحين رأى فقهاء البلد الذي كان فيه قد اجتمعوا ودفنوا النبي صلّى الله عليه وسلّم وقد مات بينهم، فاستيقظ الرجل فسأل فوجدهم في مسألة من الحج قد أُبيّنت لهم الأحاديث الصحيحة التي لا مَطعن فيها فأبوا قبولها وحكموا في المسألة بالرأي وقالوا مذاهب قد استقرت يريد هذا المنازع أن يردها بهذه الأحاديث فتعصبوا عليه.[١٧٣]

اعتزاله في المقابر ومصاحبته للموتى (~٥٨٦/١١٩٠)

إن الجذبة التي حصلت للشيخ محيي الدين عند دخوله إلى المقبرة كما ذكرنا أعلاه أطلعته على عالم آخر عادة ما يكون مهجوراً ومهملاً من قبل الناس، بل ويخشى معظم الناس من الاقتراب منه، وذلك عالم الأموات والأرواح. فنحن لا نشك أن الموت ما هو إلا انتقال من عالم المادة إلى عالم الروح، من سجن عالم الشهادة والملك إلى سعة عالم الغيب والملكوت. ولكنّ عجزنا عن الاتصال بهذا العالم وجهلنا به جعلنا نقف منه موقف العداء والحذر. ولكن لمّا تذوّق الشيخ محيي الدين هذا العالم واتصل مع أشخاصه كان دائما يرجع إليهم ويحنّ لهم ويعاشرهم ويكلّمهم ويلقي عليهم الدروس ويحاورهم فيقضي معهم الساعات والأيام بل الشهور معتزلا الناس وخوضهم في أحاديث الهوى.

ذكر مؤيّد الدين الجندي (توفي تقريبا سنة ٧٠٠/١٣٠٠) وهو أحد تلاميذ صدر الدين القونوي (توفي ٦٧٢/١٢٧٤) الذي تبنّاه ابن العربي كما سنتكلم عن ذلك في الفصل الخامس والفصل السابع إن شاء الله تعالى، ذكر أن الشيخ الأكبر بقي في الخلوة تسعة أشهر حيث دخل الخلوة في محرم وأذن له بالخروج في عيد الفطر. ويبدو أن هذه الخلوة كانت سنة ٥٨٦ وذلك بعد دخوله الطريق بفترة ليست قصيرة.[١٧٤] وربما هذه هي نفسها الخلوة التي ذكرها الشيخ الأكبر في الفتوحات، حين بلغه أن شيخه يوسف بن يخلف الكومي قال إن ابن العربي ترك مجالسة الأحياء وراح يجالس الأموات، فبعث إليه أن لو جئتني لرأيت من أجالس! فصلى الشيخ يوسف الضحى وأقبل إليه وحده فوجده بين القبور قاعداً مطرقاً وهو يتكلم على من حضره من الأرواح فجلس إلى جانبه بهدوء، فنظر إليه الشيخ الأكبر فرآه قد تغير لونه وضاق نفسه فكان لا يقدر أن يرفع رأسه من الثقل الذي نزل عليه، وابن العربي ينظر إليه ويتبسم فلا يقدر الشيخ يوسف أن يتبسم لما هو فيه من الكرب. فلما فرغ ابن العربي من الكلام وصدر الوارد خُفّف عن الشيخ واستراح وردّ وجهه إليه فقبّل بين عينيه. فقال له الشيخ محيي الدين: يا أستاذ من يجالس الموتى أنا أو أنت! قال: لا والله بل أنا أجالس الموتى، والله لو تمادى عليّ الحال فطست. ثم انصرف الشيخ يوسف وترك ابن العربي في خلوته مع الأحياء الذين في القبور. وبعد ذلك كان الشيخ يوسف يقول: من أراد أن يعتزل عن الناس فليعتزل مثل ابن

---

[١٧٢] روح القدس: ص٤-٦، ٦٦، ٩٧، ١٠٨.

[١٧٣] رسالة المبشرات، مخطوطة بيازيد ١٦٨٦.

[١٧٤] ذكر ذلك الجندي في شرح فصوص الحكم، انظر في "البحث عن الكبريت الأحمر": ص٣٨.

العربي.[175]

لقاؤه بالأرواح

ولقد كان الشيخ محيي الدين رضي الله عنه متمرّسا في عالم الأرواح لا يحجبه عنهم شيء، فكان يتصل بهم ويتواصل معهم كما لو أنه يتعامل مع العالم المادي لا فرق. وكان رضي الله عنه يقوم بذلك في النوم وفي اليقظة، وله في ذلك روايات كثيرة لا تحصر. فقد التقى مثلا بالقطب أحمد ابن هارون الرشيد (توفي سنة ١٨٤/٨٠٠) كما سنرى ذلك بمزيد من التفصيل لاحقا: "لقيته بالطواف يوم الجمعة بعد الصلاة سنة تسع وتسعين وخمسمائة وهو يطوف بالكعبة وسألته وأجابني ونحن بالطواف وكان روحه تجسّد لي في الطواف حساً تجسُّد جبريل في صورة أعرابي"[176] وذلك أن الشيخ محيي الدين لما رآه في الطواف استغرب حاله: "فإني ما رأيته يزاحم ولا يزاحَم ويخترق الرجلين ولا يفصل بينهما فقلت هذا روح تجسد بلا شك فمسكته وسلّمت عليه فردّ عليّ السلام وماشيته ووقع بيني وبينه كلام ومفاوضة".[177]

فمن حكم نفوذ البصر أن يدرك صاحبه الأرواح النورية والنارية عن غير إرادة من الأرواح ولا ظهور ولا تصور، كابن عباس وعائشة رضي الله عنهما حين أدركا جبريل عليه السلام وهو يكلّم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على غير علم من جبريل بذلك ولا إرادة منه للظهور لهم، فأخبرا بذلك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ولم يعلما أنه جبريل عليه السلام فقال لها صلّى الله عليه وسلّم أوَقد رأيتيه؟ وقال لابن عباس أرأيته؟ قالا نعم، قال: ذلك جبريل.[178]

وكذلك ذكر الشيخ رضي الله عنه طرقا مختلفة تتجسد له بها الأرواح فيتعلم منهم ويعلّمهم، فقال شعرا في الباب الثاني والسبعين وهو باب أسرار الحج في آخر الجزء الأول من الفتوحات المكية:

فمنهم من تجسّد لي بأرضٍ ... ومنهم من تجسّد في الهواء
ومنهم من تجسّد حيث كنّا ... ومنهم من تجسّد في السماء
فيخبرنا ونخبره بعلمٍ ... ولكن لا نكون على السواء
فإني ثابتٌ في كلّ عينٍ ... وهم لا يقدرون على البقاء
فهم يتصوّرون بكلّ شكلٍ ... كلَوْن الماء من لون الإناء

وذلك في تجسد الأرواح المفارقة لاجتماع أجسامها في الحياة الدنيا المسمى موتاً، حيث رأى

---

[175] الفتوحات المكية: ج٣ص٤٥.

[176] الفتوحات المكية: ج٢ص١٥.

[177] الفتوحات المكية: ج١ص٦٣٨.

[178] الفتوحات المكية: ج٣ص٣٣٢، والحديث ورد في معجم الطبراني الكبير للإمام الطبراني، من غير ذكر ابن عباس رضي الله عنهما. انظر: المعجم الكبير، أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية- بغداد، مطبعة الزهراء الحديثة-الموصل، ١٩٨٣: ج٢٣ص٣٥، ج٢٣ص٣٧.

الشيخ الأكبر منهم جماعة متجسدين من الأنبياء والملائكة والصالحين من الصحابة وغيرهم وهم يتجسدون في صور المعاني المتجسدة في صور المحسوسات؛ فإذا تجلّى المعنى وظهر في صورة حسية تبعه الروح في صورة ذلك الجسد كان ما كان؛ لأن الأرواح المدبرة تطلب الأجسام طلباً ذاتياً فحيثما ظهر جسم أو جسد، حسّاً كان ذلك أو معنى، تجسد كالعمل الصالح في صورة شاب حسن الوجه والنشأة والرائحة فإن الروح تلزمه أبداً.[179]

وقال صدر الدين القونوي تلميذ ابن العربي أن شيخه كان متمكناً من الاجتماع بروح من شاء من الأنبياء والأولياء الماضين وذلك من خلال ثلاثة طرق: إن شاء الله استنزل روحانيته في هذا العالم وأدركه متجسداً في صورة مثالية شبيهة بصورته الحسّية العنصرية التي كانت له في حياته الدنيا، وإن شاء الله أحضره له في نومه، وإن شاء انسلخ هو عن هيكله واجتمع به.[180]

رؤيته للرسل عليهم الصلاة والسلام

وهكذا فقد رأى الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي جميع الرسل عليهم السلام رؤية عين، والتقى ببعضهم كذلك في مناسبات كثيرة سواء في عالم المثال أو في عالم المُلك. فهو يقول في الفتوحات المكية أنه رأى جميع الرسل والأنبياء كلهم مشاهدة عين وكلّم منهم على وجه الخصوص هوداً أخا عاد. ويضيف أيضاً أنه رأى المؤمنين كلهم مشاهدة عين أيضاً، من كان منهم ومن يكون إلى يوم القيامة، أظهرهم الحق له في صعيد واحد في زمانين مختلفين. ثم يضيف فيقول:

> وصاحبت من الرسل وانتفعت بهم سوى محمد صلّى الله عليه وسلّم جماعة منهم إبراهيم الخليل قرأت عليه القرآن، وعيسى تبت على يديه، وموسى أعطاني علم الكشف والإيضاح وعلم تقليب الليل والنهار؛ فلما حصل عندي زال الليل وبقي النهار في اليوم كله فلم تغرب لي شمس ولا طلعت فكان لي هذا الكشف إعلاماً من الله أنه لا حظّ لي في الشقاء في الآخرة، وهود عليه السلام سألته عن مسألة فعرّفني بها فوقعت في الوجود كما عرفني بها. ... وعاشرت من الرسل محمداً صلّى الله عليه وسلّم وإبراهيم وموسى وعيسى وهوداً وداود وما بقي فرؤية لا صحبة.[181]

ويقول أيضاً في معرض حديثه عن المعراج:

> فلما دخلت (السماء الثانية) إذا بعيسى عليه السلام بجسده عينه فإنه لم يمت إلى الآن بل رفعه الله إلى هذه السماء وأسكنه بها وحكّمه فيها، وهو شيخنا

---

[179] الفتوحات المكية: ج١ص٧٥٥.

[180] صدر الدين القونوي، "الإسفار عن رسالة الأنوار"، ص١٠٢.

[181] الفتوحات المكية: ج٤ص٧٧.

الأول الذي رجعنا على يديه وله بنا عناية عظيمة لا يغفل عنّا ساعة واحدة وأرجو أن ندرك زمان نزوله إن شاء الله.[182]

وقد ذكر ذلك أيضاً شعرا في مقدمة الباب الثالث عشر وثلاثمائة من الفتوحات حيث أن عادته رضي الله عنه أنه دائما يفتتح أبواب الفتوحات بأبيات شعر هي جزء من موضوع الباب. فيقول الشيخ محيي الدين في هذه القصيدة:[183]

أقـــول لآدم أصـــل الجـــموم ... كمـــا أصـــل الرســـالة شـــرع نـــوحِ
وإن محمـــــداً أصـــلٌ شـــريفٌ ... عزيـــز في الوجـــود لكـــل روحِ
إذا حـــضروا وإخـــواني وقـــوفٌ ... لخـــدمتهم حننـــت إلى المـــسيحِ
فـــإني كنـــت ثُبـــت علـــى يديـــه ... وســـاعدني علـــى قتـــل المـــسيحِ[184]
وذلـــك في المنـــام، وكـــان موســـى ... نجـــيّ فيـــه بـــالقول الفـــصيحِ
وأعطـــاني الغزالـــة[185] في يمـــيني ... وأفهـــم بالإشـــارة والـــصريحِ
وأغنـــاني فـــروّحني علـــوّاً ... وأفقرنـــي فأصـــحبني ضـــريحي
فـــإن حـــضروا وضـــمّهمُ مقـــامٌ ... إلـــيهم حـــين أبـــصرهم جنـــوحي
فـــبرُّ الوالـــدين علـــي فـــرضٌ ... فيـــا نفـــسي علـــى التفـــريط نـــوحي
أنـــا ابـــن محمـــد وأنـــا ابـــن نـــوحٍ ... كمـــا أنـــي ابـــن آدم في الـــصحيحِ
فيـــا مـــن يفهـــم الألغـــاز هـــذا ... لـــسان رموزنـــا بـــالعلم يـــوحي

ولتوضيح بعض المعاني التي وردت في هذه القصيدة نذكر أن ابن العربي يعتبر أن أصل أرواحنا روح محمد صلّى الله عليه وسلّم فهو "أوّل الآباء روحاً" كما أن آدم عليه السلام "أوّل الآباء جسماً" ونوحٌ عليه السلام "أوّل رسول أرسل"، ومن كان قبله إنما كانوا أنبياء. فكما قال في نفس هذا الباب الثالث عشر وثلاثمائة أن أول شخص استفتُحت به الرسالة هو نوح عليه السلام، وأول روح إنساني وُجد هو روح محمد صلّى الله عليه وسلّم، وأول جسم إنساني وُجد جسم آدم عليه السلام.[186]

التربية الروحية

لقد رأينا أعلاه أن الطريق الطبيعي للتصوف هو مجاهدة النفس وترويضها وتربيتها على أيدي الشيوخ المرشدين المختصين بذلك. وهذه المجاهدة والرياضة أمرٌ صعبٌ وطويلٌ قد يستغرق سنواتٍ طوالا

---

[182] الفتوحات المكية: ج٣ص٣٤١.

[183] الفتوحات المكية: ج٣ص٤٩.

[184] معنى قتل المسيح هنا، هو قتل المسيح الدجّال وهو رمز للهوى الذي يبدو للنفس بصورة العقل فيغريها بفعل أشياء تحسبها من العقل وهي أوهام تؤدي إلى مفاسد وضلالات وتحقيق شهوات عاجلة. انظر في "سلوك القلب": ص١٤٨.

[185] الغزالة هي اسم للشمس.

[186] الفتوحات المكية: ج٣ص٤٩.

ويستدعي الكثير من الصبر على الجوع والزهد والسهر حتى تموت النفس وتضمحل فيها صفة الربوبية وتبقى صفة العبودية والفقر لله تعالى. عندئذ تصبح النفس مستعدة لتلقي التجليات الإلهية وتنفتح عين بصيرتها إلى عالم الغيب وهو المعبّر عنه بالفتح. وعلى الرغم من أن توبة الشيخ الأكبر الحقيقية كانت على يد عيسى بن مريم عليه السلام الذي يقول عنه: "وهو شيخنا الأول الذي رجعنا على يديه وله بنا عناية عظيمة لا يغفل عنا ساعة واحدة".[187] وعلى الرغم من أن الفتح قد حصل له في مدة وجيزة عن طريق الجذبة ولم يحتج إلى رياضة وسلوك طويل، ولكنه كان لا بد من المواظبة على التربية الروحية على يد شيوخ زمانه حتى يصقل مواهبه ويهيّئ نفسه لبلوغ الدرجات الرفيعة التي كانت تنتظره. وذلك لأنه كما رأينا أعلاه: "فإن الإنسان إذا تقدم فتحُه قبل رياضته فلن يجيء منه رجل أبداً إلا في حكم النادر."[188]

من أجل ذلك بدأ الشيخ محيي الدين رضي الله عنه يسعى وراء الشيوخ المرشدين، فالتزم مع شيخين كبيرين من علماء إشبيلية هما أبو العباس العريبي وأبو عمران الميرتلي، بالإضافة إلى الشيخ أبي يوسف الكومي كما ذكرنا من قبل، وكان كلّما سمع عن شيخ معروف في طريق الله يسافر إليه حتى يستفيد منه ويتعلّم على يديه.

ترويض النفس

والقصة التالية تدلُّ على أن الشيخ محيي الدين كان بارعاً في السلوك وكانت نفسه طوع أمره رغم ما كان يتّسم به من درجة اجتماعية عالية تقتضي في أغلب الأحيان، إلا من رحم الله، التكبُّر على الناس وتدعو إلى الرفعة عن المستحقرات. وبالتالي كان الشيخ يوجّه رياضته لمعانٍ عميقة ولا يحتاج أن يضيع الكثير من الوقت والجهد في ترويض نفسه. قال في سياق حديثه عن تعظيم الصدقات سواءً في الأخذ والإعطاء:

> فقد يكون استعظام الصدقة من هذا الباب (أي من قوله تعالى في سورة الحج: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ۝٣٢﴾) عند بعض العارفين، فلهذا يستعظم ما يعطي إن كان مُعطياً أو ما يأخذ إن كان آخذاً، وقد يكون مشهده ذوقاً آخر (وهو أنها من عند الله تعالى مهما كانت صغيرة) وهو أوّل مشهدٍ ذقناه من هذا الباب في هذا الطريق، وهو أني حملت يوماً في يدي شيئا محقراً مستقذرا[189] في العادة عند العامة لم يكن أمثالنا يحمل مثل ذلك من أجل ما في النفوس من رعونة الطبع ومحبة التميّز على من لا يلحظ بعين التعظيم. فرأيت الشيخ (لعله يقصد أبا العباس العريبي، الذي سنذكره بعد قليل) ومعه أصحابه مقبلاً. فقال له أصحابه يا سيدنا هذا فلان قد أقبل وما قصّر في الطريق:

---

[187] الفتوحات المكية: ج٣ص٣٤١.

[188] رسالة الأنوار، ضمن رسائل ابن عربي، طبعة حيدرآباد، ص٥.

[189] كان ذلك سمكا مملحا (الفتوحات المكية: ج١ص٥٠٦).

لقد جاهد نفسه: تراه يحمل في وسط السوق حيث يراه الناس كذا، وذكروا له ما كان بيدي. فقال الشيخ فلعلّه ما حمله مجاهدةً لنفسه. قالوا له فما ثَمّ إلا هذا! قال فاسألوه إذا اجتمع بنا.

فلما وصلت إليهم سلمت على الشيخ. فقال لي بعد ردّ السلام: بأيّ خاطر حملت هذا في يدك وهو أمرٌ محقّرٌ مستقذرٌ وأهل منصبك من أرباب الدنيا لا يحملون مثل هذا في أيديهم لحقارته واستقذاره؟ فقلت له: يا سيدنا حاشاك من هذا النظر ما هو نظر مثلك؛ إن الله تعالى ما استقذره ولا حقّره لما علّق القدرة بإيجاده كما علّقها بإيجاد العرش وما تعظّمونه من المخلوقات، فيكف بي وأنا عبدٌ حقيرٌ ضعيفٌ أستحقر وأستقذر ما هو بهذه المثابة. فقبّلني ودعا لي وقال لأصحابه أين هذا الخاطر من حمل المجاهد نفسه!

فقد يكون استعظام الصدقة من هذا الباب في حقّ المعطي وفي حقّ الآخذ فلاستعظام الأشياء وجوه مختلفة يعتبرها أهل الله.[١٩٥]

الشيخ الإمام أبو يعقوب يوسف بن يخلف الكومي

وكما رأينا من قبل فإن الشيخ الإمام أبا يعقوب الكومي كان من أوائل الشيوخ الذين تربى الشيخ محيي الدين على أيديهم وكان له فيه أثر كبير وخاصة في الرياضة، ويبدو أن الشيخ الكومي هو أول من عرّف الشيخ محيي الدين على مكانة الشيخ أبي مدين مع أنه لم يلتق به في العالم الطبيعي كما سنرى في الفصل القادم.

وكذلك سوف نرى أن الشيخ محيي الدين حافظ على علاقته بشيخه يوسف حتى آخر لحظة ترك فيها المغرب، حيث ذهب بشكل مخصوص من الأندلس إلى جنوب المغرب إلى مدينة سلا حتى يودّعه، حيث يبدو أن الشيخ يوسف ترك الأندلس واستقر في المغرب، وكذلك كان يرافقه أثناء وجودهما معا في مدينة فاس.

بعض صفاته

فيقول الشيخ الأكبر في روح القدس عن شيخه وإمامه أبي يعقوب يوسف بن يخلف الكومي العبسي رضي الله عنه أنه صحب أبا مدين رضي الله عنه وسكن ديار مصر مدة وتأهّل بمدينة الإسكندرية، ورغب في مصاهرة أبي طاهر السلفي. وقد عُرضت عليه ولاية فاس فأبى. له في الطريق قدم راسخة. كان أبو مدين رضي الله عنه لسان هذه الطريقة ومحيها ببلاد المغرب يقول في أبي يعقوب أنه مثل المرسى القوي للسفينة. كان كثير الأوراد، يخفي صدقته، يكرم الفقير ويذل الغني، ويسارع في قضاء حاجة الفقير بنفسه.

---

[١٩٥] الفتوحات المكية: ج١ص٥٨٨.

ويضيف الشيخ محيي الدين في وصفه فيقول إنه كان كبير الهمة، الغالب عليه طريق الملامية،[191] وكان غالبا مقطّب الوجه ولكنه إذا أبصر فقيراً تبرّق أسارير وجهه؛ كان يدني الفقير من نفسه حتى يجلسه على فخذه، ويخدم أصحابه بنفسه.

ومما تميّز به الشيخ يوسف أيضاً أنه كان إذا أعطى المجاهدة للمريد يعملها معه، وكذلك للاثنين والثلاثة يعمل مع هذا ومع هذا فتراه لا يفتر. وهذا أمر نادر بين الشيوخ المربّين.

تربيته وتعليمه لابن العربي

ولقد روينا في الأعلى كيف كان الشيخ الكومي يصطحب معه ابن العربي حتى قبل أن يدخل الطريق. ثم دخل الشيخ محيي الدين تحت أمره فربّاه وأدّبه فنعم المؤدّب ونعم المربّي. وقد عرّف عليه صاحبه بدراً الحبشي كما هي عادته كما رأينا أعلاه. ينقل عنه الشيخ محيي الدين أنه سمعه مرة يقول: إذا شاء الشيخ أخذ بيدِ المريد من أسفل سافلين وألقاه في عليين في لحظة واحدة.

ويقول الشيخ محيي الدين أنه رآه مرة في النوم وقد انشق صدره وفيه مصباح يضيء كأنه الشمس، فقال له: يا محمّد هات، فأتاه محمد بحقّين أبيضين كبيرين فتقيّأ فيهما لبناً حتى ملأهما ثمّ قال له: اشرب! فشرب الشيخ محيي الدين. فيقول الشيخ محيي الدين أن جُلّ ما هو فيه كان من بركة الشيخ الكومي وبركة الشيخ أبي محمد الموروري الذي سنذكره في آخر هذا الفصل.

وكان الشيخ محيي الدين صادقا في صحبته للشيخ يوسف حتى إنه يقول إنه كان كلّما تمنّاه في بيته لمسألة تخطر له يراه أمامه فيسأله ويجيبه ثم ينصرف.

أول مسألة ألقاها على ابن العربي

ويذكر الشيخ الأكبر في روح القدس أن أول مسألة ألقاها عليه شيخه يوسف الكومي وذلك في أول ساعة رآه فيها وقد أقبل عليه بكليته أن قال له: ما الذنب الذي يأتيه المارّ بين يدي المصلي حتى يودّ أن يقف أربعين خريفا؟[192] فأجابه ابن العربي على ذلك على حدّ ما وقع له في وقتها، فسُرّ الشيخ بذلك.

مسألة أخرى صعبة (١١٩٠/٥٨٦)

ومن المسائل الأخرى الصعبة التي طرحها الشيخ الكومي على ابن العربي سنة ستّ وثمانين وخمسمائة هي أنه إذا اجتمع عارفان في حضرة شهودية عند الله ما حكمها؟ فأجاب الشيخ الأكبر: يا سيدي هذه مسألة لُفرض ولا تقع إلا إذا كان التجلي في حضرة المِثل كرؤيا النائم وكحال الواقعة، وأما في الحقيقة

---

[191] الملامية أعلى فئة بين رجال الله بعد الزهّاد ثم الصوفية، وسوف نتكلّم عنهم في الفصل الثالث.

[192] حديث متفق عليه عن النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه قال: "لو يعلم المار بين يدي المصلي ماذا عليه لكان أن يقف أربعين خير له من أن يمر بين يديه". انظر في كنز العمال: رقم ٢٣٠٢، وكذلك: رقم ١٩٢٤٩، ١٩٢٥٠.

فلا لأن الحضرة لا تسع اثنين بحيث أن يشهد معها غيرها، بل لا يشهد عينه في تلك الحضرة فأحرى أن يشهد عيناً زائدة! ولكن يُتصور هذا في تجلي المثال: فإذا اجتمعا فلا يخلو كل واحد منهما أن يجمعهما مقام واحد أعلى أو أدنى أو متوسط أو لا يجمعهما، فإن جمعهما مقام واحد فلا يخلو إما أن يكون ذلك المقام مما يقتضي التنزيه أو التشبيه أو المجموع. وعلى كل حال فحكم التجلي من حيث الظهور واحد ومن حيث ما يجده المتجلّى له مختلف الذوق لاختلافهما في أعيانهما، لأن هذا ما هو هذا لا في الصورة الطبيعية ولا الروحانية ولا في المكانية وإن كان هذا مثلٌ لهذا.[193]

ومن هنا كان مبدأ قول الشيخ محيي الدين بأن التجلي لا يتكرر مرتين لنفس الشخص ولا مرة لاثنين، وذلك من اسم الله تعالى "الواسع" وكذلك من اسمه "الخلاّق"، فلا تكرار في الوجود، وهذا مبدأ فيزيائي وفلسفي على غاية من الأهمية ما سُبق الشيخ محيي الدين إليه، ويصلح أن يكون أساسا لنظرية كونية تستطيع تفسير الكثير من الظواهر المستعصية في العلم الحديث. وقد ناقشت هذه المسألة بالتفصيل في رسالة الدكتوراه التي بدأت بإعادة صياغتها باللغة العربية وستنشر قريبا إن شاء الله تعالى.

إخفاء حبه له وإظهار الشدة

ويقول الشيخ محيي الدين أن الشيخ يوسف الكومي كان يحبه كثيرا ولكنه كان لا يظهر ذلك له، ويقرّب غيره ويطرده، ويصوّب كلام غيره ويوبخه في المحافل والمجالس ويشتمه حتى كان أصحابه الذين معه ينسبونه إلى قلة الهمّة، والحقيقة أنه كان أفضلهم فما برع من تلك الجماعة غيره، وكان الشيخ الكومي رضي الله عنه يقول ذلك.

ولكنه كان أحيانا يحاول أن يباسط ابن العربي الذي كان شديد الاحترام للشيوخ فكان إذا قعد بين يديه وبين يدي غيره من شيوخه يرتعد مثل الورقة في يوم الريح الشديد ويتغير نطقه وتتخدر جوارحه، وقد رأينا في الأعلى كيف أن الشيخ الأكبر في بدايته لم يستطع القراءة في رسالة القشيري أمام الشيخ يوسف الكومي. فكان الشيخ يحاول أن يؤنسه ولكن ذلك كان لا يزيده إلا مهابة وإجلالا.

كرامة من بركة الشيخ أبي مدين (إشبيلية، قبل سنة ١١٨٤/٥٨٠)

كما ذكرنا في أول هذا الفصل أن الشيخ يوسف الكومي اصطحب مرة معه بعض تلاميذه ومنهم ابن العربي إلى جبل المنتيار وهو جبل عال على بعد فرسخ من إشبيلية. فيضيف الشيخ محيي الدين في روح القدس أنهم لما رجعوا إلى المدينة ركب الشيخ يوسف فرسه وكان ابن العربي يمسك الركاب والشيخ يحدثه بفضائل الشيخ أبي مدين وكراماته رضي الله عنه. ومن شدّة استغراقه بالحديث فني ابن العربي في كلام شيخه ووصفه لأبي مدين فكان لا يحسّ بنفسه وهو يرفع إليه وجهه وينظر إليه في أكثر الأوقات، وكان الشيخ يوسف ينظر إليه ويبتسم ويهمز فرسه فيسرع ويسرع هو معه. ثم وقف وقال له أنظر ما تركت خلفك؟ فنظر الشيخ

[193] الفتوحات المكية: ج٢ص٤٧٦.

محيي الدين فرأى الطريق الذي مشى به كله شوكاً يصل إلى معقد الإزار وشوكاً آخر منبسطا في الأرض. قال له الشيخ يوسف: أنظر إلى قدميك. فنظر إلى قدميه فلم ير بهما أثراً. قال له: أنظر إلى ثوبك فلم ير أثراً كذلك. حينئذ قال له الشيخ يوسف: هذا من بركة ذكرنا أبا مدين رضي الله عنه؛ إلزم الطريق يا بني تفلح. وهمز فرسه وترك ابن العربي خلفه.

فلا شك أن هذه الحادثة التي حدثت قُبيل دخوله إلى طريق الله تعالى، كان لها أثر كبير على ابن العربي وربما كانت الدافع الرئيسي الذي أدى به إلى سلوك طريق التصوف.

وأضاف إلى ذلك أنهم عندما وصلوا إلى المدينة قعد ابن العربي معه بعد العصر فرآه يتعلق للخروج، فقال له الشيخ يوسف: ما شأنك؟ فقال محيي الدين له: علي أربع حوائج أريد أن أقضيها ولي أيام أروم قضاءها وأتعمّل فيها ولا أجد الأشخاص الذين الحوائج بأيديهم. فتبسّم الشيخ يوسف وقال إن تركتني ومشيت ما تنقضي لك منها حاجة! فاقعد معي أذكر لك من أحوال أبي مدين رضي الله عنه، وأنا أضمن قضاءها. فقعد، فلما حان وقت المغرب قال له: أخرج الساعة إلى منزلك فإنك لا تصلي المغرب حتى تنقضي الحوائج كلها. فخرج ابن العربي والشمس قد غربت فوصل إلى منزله ومؤذن المغرب يؤذن. فيقول: فوالله ما أحرمت بالصلاة للمغرب حتى انقضت حوائجي.

فوائده على ابن العربي

ويقول الشيخ محيي الدين أنه قد استفاد من الشيخ يوسف الكومي على وجه الخصوص عدة مسائل منها: مسألة الوصال، و"أنا سيد ولد آدم"، و"آدم ومن دونه تحت لوائي"، و"التدبير نصف العيش" و"إذا أحب الله عبدا ابتلاه"، و"قلب القرآن يس".[١٩٤]

المنفعة المتبادلة في الترويض والمواجيد (٥٨٦/١١٩٠)

ولقد ذكرنا في الأعلى أيضاً أن علاقة الشيخ محيي الدين بشيوخه كانت علاقة تعليم متبادل وليست فقط علاقة مريد بشيخه، فيقول الشيخ محيي الدين أنه قد انتفع بالشيخ يوسف كثيرا وما راضه أحد من مشايخه سواه، ولكن الشيخ يوسف أيضاً انتفع من مواجيد الشيخ محيي الدين، فكان له تلميذاً وأستاذاً، وكلّ ذلك لأن الشيخ محيي الدين قد تقدّم فتحه على رياضته كما ذكرنا أعلاه، فبلغ مراتب الشيوخ والمعلمين وهو بعد ما يزال مريدا.[١٩٥]

الوصول إلى الله سبحانه وتعالى

من المعروف أن هدف الصوفي هو الوصول إلى الله تعالى، وهذا أمرٌ قد يكون مشكلا على بعض

---

[١٩٤] روح القدس ٤٨-٥١.

[١٩٥] الفتوحات المكية: ج١ص٦١٦.

الناس، فلا يعرفون كيف يكون، لأن الإنسان اعتاد على تقدير كل شيء بالمسافة والبعد؛ والله ليس كذلك بل هو أقرب إلينا من حبل الوريد. ولكن السالك الذي يسلك طريق الله تعالى، الذي هو الشريعة، ليصل إلى الحقيقة، يمرّ على المقامات القلبية التي يقطعها في سلوكه مثل التوبة والمحاسبة والخوف والرجاء والمراقبة والزهد والورع والصبر واليقين والحياء وغيرها. فليس المُراد من الوصول إلى الله تعالى المعنى المعروف بين ذوات الأشياء المادية وغير المادية، فالله ليس متحيّزا في مكان حتى يُسلك طريق فيوصل إليه. قال ابن عطاء الله السكندري: وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به، وإلا فجلّ ربُّنا عن أن يتّصل به شيءٌ أو يتّصل هو بشيء.[196]

وقد يبدو الطريق الموصل إلى الله تعالى، وهو عبور هذه المقامات القلبية التي ذكرناها، طويلا جداً وشاقّاً ويحتاج إلى مجاهدة ورياضة طويلة. ولكن ابن العربي يذكر أن الشيخ أبا يعقوب يوسف بن يخلف الكوميّ يقول: بيننا وبين الحق المطلوب عقبة كؤود ونحن في أسفل العقبة من جهة الطبيعة فلا نزال نصعد في تلك العقبة حتى نصل إلى أعلاها، فإذا استشرفنا على ما وراءها من هناك لم نرجع، فإن وراءها ما لا يمكن الرجوع عنه، وهو قول أبي سليمان الدارانيّ: "لو وصلوا ما رجعوا" يريد إلى رأس العقبة، فمن رجع من الناس إنما رجع من قبل الوصول إلى رأس العقبة، والإشراف على ما وراءها.[197]

وأما من يصل من الكُمّل من الرجال فإنه لا يعود إلى الدنيا إلا لطلب الكمال وإرشاد العباد. وقد ذكرنا ذلك في كتاب سلوك القلب من الوجود إلى الفناء ثم البقاء؛ فبعد أن يفنى العبد عن نفسه، ويبقى بربّه، يمكن أن يعود إلى الدنيا ليكون دليلا على ربّه، وهي الدعوة إلى الله على بصيرة كما ذكرها الله تعالى في آخر سورة يوسف.

فيقول الشيخ محيي الدين أن السبب الموجب للرجوع مع هذا إنما هو طلب الكمال، ولكن لا ينزل بل يدعوهم من مقامه ذلك، وهو قوله على بصيرة، فيشهد فيعرف المدعوّ على شهود محقق.

وكذلك فمن الناس من لا يعود بعد الشهود فالذي لم يُردّ ما له وجه إلى العالم فيبقى هناك واقفا، وهو أيضاً المسمى بالواقف، فإنه ما وراء تلك العقبة تكليف ولا ينحدر منها إلا من مات. ثم يقول الشيخ أن من الواقفين من يكون مستهلَكا فيما يشاهده هنالك وقد وجد منهم جماعة وقد دامت هذه الحالة على أبي يزيد البسطاميّ وهذا كان حال أبي عقال المغربيّ وغيره.[198]

وسوف نجد في الفصل الرابع أن الشيخ محيي الدين سيزور الشيخ يوسف الكومي في مدينة سلا جنوبي المغرب، وربما ذهب إلى هناك بشكل مخصوص كي يودع شيخه الذي تربى على يديه لأنه قد قرّر أن يسافر بشكل نهائي إلى المشرق.

---

[196] الحكم العطائية: شرح وتحليل، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر-دمشق، ٢٠٠٣: ج٤ص٤٤٧.

[197] الفتوحات المكية: ج١ص٢٥٣.

[198] الفتوحات المكية: ج١ص٢٥١.